

سُورَةُ الْمَدِّثِرِ

حِينَ يَنْهَضُ الْقَلْبُ مِنْ دِثَارِهِ



سُورَةُ الْمَدَّثِرِ

حِينَ يَنْهَضُ الْقَلْبُ مِنْ دِثَارِهِ

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

مقدمة منهجية

السورة التي لا تترك الإنسان نائمًا في نفسه

هناك سورٌ تدخل على القلب من باب الرجاء، وسورٌ تأتيه من باب السكينة، وسورٌ تفتح أمامه مشاهد الكون حتى يشعر أن الأرض التي يمشي عليها ليست إلا صفحةً صغيرةً في كتاب الوجود؛ أمّا سورة المدثر فإنها تأتي إلى الإنسان وهو ملتفتٌ في دثار ذاته، مستريحٌ إلى ما يحيط به، فتأمره منذ اللحظة الأولى أن يقوم. ولذلك لا تبدأ السورة بمقدمة طويلة، ولا ببرهان متدرج، ولا بصورة كونية بعيدة، وإنما تبدأ بنداء يهز الساكن من سكونه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۖ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾. وكأن أول درس في الرسالة أن الحقيقة حين تدخل القلب لا يجوز أن تبقى فيه متاعاً شخصياً، وأن النور إذا عرف طريقه إليك فقد حملك مسؤولية أن تدلّ عليه.

إنها سورة القيام بقدر ما هي سورة الإنذار؛ فالإنذار فيها ليس كلاماً يقال فحسب، وإنما إنسانٌ يعاد تشكيله حتى يصبح قادراً على حمله: يكبر ربه، ويظهر ثيابه، ويهجر الرجز، ولا يمين بعطائه، ويصبر لربه. ولهذا فإن الآيات الأولى لا تصنع خطيباً، وإنما تصنع صاحب رسالة؛ ولا تعلّمه أولاً ماذا يقول للناس، بل تعلّمه أولاً كيف يكون بين يدي الله. فما أسهل أن ينذر اللسان بينما القلب متعلق بغير الله، وما أسهل أن يتحدث الإنسان عن الطهارة بينما

يحمل في باطنه رجساً لا يريد هجره، وما أسهل أن يعطي ثم يظل واقفاً أمام عطائه ينتظر من العالم أن يصفق له. بخفاء السورة تقيم أساس الدعوة في صاحبها قبل أن تدفعه إلى الناس. ثم يحدث التحول المذهل؛ فن الإنسان الذي أمر أن يقوم، تنتقل السورة إلى الإنسان الذي أبى أن يقوم للحقيقة. واحدٌ خرج من دثاره ليحمل النور، وآخر أحاط نفسه بدثار المال والبنين والجاه والحسابات حتى صار الوحي أمامه قضيةً لا يبحث فيها عن الحق، بل يبحث عن العبارة التي يستطيع أن يهزم بها الحق في أعين الآخرين. وبين هذين النموذجين تتحرك السورة: قلبٌ يتجرد لله حتى يحمل الرسالة، وقلبٌ يتضخم بنفسه حتى يعاند الرسالة.

ولذلك يأتي ذكر الوليد بن المغيرة في سياق يكاد يكون تشريحاً حياً لآلية المكابرة: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾. لم يكن الرجل عاجزاً عن التفكير؛ كانت مأساته أن التفكير انفصل عن طلب الحقيقة. فالذكاء حين لا يكون متوازناً أمام الحق قد يتحول إلى آلة بالغة الكفاءة لصناعة الباطل، والعقل لا ينقذ صاحبه بمجرد قوته، وإنما ينقذه حين يكون أميناً. وقد يرى الإنسان الدليل واضحاً، ثم يستدعي قدرته الذهنية كلها لا ليهتدي به، بل ليجد مخرجاً منه. وهنا تبلغ المأساة ذروتها: ليس كل من فكر اهتدى؛ فقد يفكر الإنسان ليهرب.

ثم تفتح السورة باب سقر، لا بوصفها صورةً منفصلة عن الحياة، بل بوصفها النهاية التي كان الإنسان يبنها اختياراً بعد اختيار. وتأتي النار في السورة شديدة الحضور: ﴿لَا تَبْقَى وَلَا تَذُرُ﴾ ﴿لَوْ آخِذَةٌ لِلْبَشَرِ﴾، حتى تشعر أن القرآن يريد أن يهدم في داخل الإنسان ذلك الشعور المضلل بأن أفعاله تمر ثم تنتهي. لا شيء يمر تماماً. الفعل يكتب الإنسان، والاختيار يصنع المصير، وما يفعله المرء في لحظة قد يتحول يوماً إلى حقيقة تحيط به.

ومع ذلك فإن السورة لا تجعل طريق الآخرة منفصلاً عن الدنيا، ولذلك يأتي ذلك الإعلان العظيم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾. ليست النفس رهينة نسبها، ولا رهينة ادعائها، ولا رهينة الصورة التي صنعتها لنفسها أمام الناس؛ إنما رهينة ما كسبت. وفي هذه الآية وحدها تنكسر أوهام كثيرة: وهم الاحتماء بالمكانة، وهم التعويض عن فساد الباطن بحسن السمعة، وهم أن الإنسان يستطيع أن يعيش بلا تبعة. إن الحياة، في المنظور القرآني، ليست زمناً يُستهلك، وإنما مسؤولية تتراكم.

وحين يسأل أصحاب اليمين المجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ تأتي الإجابات شديدة البسطة والرهبة: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ ﴿وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ﴾ ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾. ليست قائمة فلسفية معقدة؛ إنها صورة لإنسان انقطع عن الله، ثم قسا على الإنسان، ثم أضاع وعيه داخل ضجيج الجماعة، ثم عاش كأن الحساب لن يأتي. باختلال العلاقة بالله ينعكس على علاقة الإنسان بالخلق، ثم على منطقته الاجتماعي، ثم على رؤيته للزمن والمصير.

ثم تبلغ السورة نهايتها في صورة عجيبة لا تنسى: أناس يفرون من التذكرة كأنهم ﴿مُحْرَمُونَ﴾ ﴿مُسْتَفْرَغُونَ﴾ ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾. وهنا ينتقل القرآن من مناقشة الحجة إلى تصوير الحالة النفسية: بعض الناس لا يرفض الحقيقة لأنه لم يفهمها، بل لأنه يخاف ما ستفعله به إن فهمها. فالتذكرة تهدد ترتيبات النفس القديمة، وتطالبها أن تغيّر طريقها، ولهذا قد يبدو الهرب أسهل من المواجهة.

غير أن آخر السورة لا يترك الإنسان مع نفسه، بل يرد الأمر كله إلى الله: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ^ج هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾. وبعد الإنذار والنار وسقر والرهان الثقيل على العمل، يفتح آخر المشهد على المغفرة؛ وكأن السورة تقول: إن الذي أمرك أن تقوم هو نفسه الذي يفتح لك طريق العودة، وإن الخوف منه ليس باب اليأس، بل باب النجاة؛ لأنه سبحانه أهل التقوى وأهل المغفرة.

وهذا الكتاب لا يريد أن يحمل النص القرآني ما لا يحتمل، ولا أن يجعل الخاطر الشخصي تفسيراً ملزماً لآية. سنبدأ من المعنى الذي يدل عليه اللفظ والسياق وما قرره أهل التفسير، ثم نظرفي الإشعاع الإيماني والإنساني الذي يفتحه النص، مع بقاء الحد الفاصل واضحاً بين المعنى المفسّر والتأمل المستنبط؛ فالقرآن أعلى من أن يكون مادةً لخيال منفلت، وأغنى من أن يُختزل في عبارة واحدة.

إننا ندخل سورة المدثر إذن لا لنقرأ قصة إنذار قديم، وإنما لنطرح سؤالاً شديد القرب منا: كم دثراً ما زلنا ملتفين به؟ دثار الخوف، ودار الراحة، ودار انتظار الاعتراف، ودار المال، ودار الجماعة، ودار الأعذار، ودار الصورة التي لا نريد أن نخسرها. ثم يأتي النداء، بعد أربعة عشر قرناً، محتفظاً بحارته الأولى:

﴿قُمْ﴾.

فالقرآن لا يريد فقط أن يوقظ عينيك.

إنه يريد أن يوقظك أنت.

الفصل الأول

الخروج من الدثار إلى مقام الرسالة

الآيات 1-7

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۖ قُمْ فَأَنْذِرْ ۚ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ۚ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۚ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۚ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۚ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۚ﴾

الآية الأولى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾

حين يناديك الله من داخل حالتك

في النداء شيء من اللطف الذي لا تخطئه الروح. لم يقل: يا أيها النبي، ولا يا أيها الرسول، في هذه اللحظة، وإنما ناداه بوصف الحال التي هو عليها: المدثر؛ أي المتلفف بدثاره. وكأن الخطاب الإلهي يأتي إلى الإنسان حيث هو، قبل أن ينقله إلى حيث ينبغي أن يكون. وهذه من أرق طرائق التربية الربانية: أن الله لا ينتظر منك أن تصل وحدك إلى مقام الكمال حتى يخاطبك، بل يخاطبك وأنت في ضعفك، وفي خوفك، وفي انكفائك، ثم يجعل من الخطاب نفسه بداية الانتقال.

الدثار في ظاهره ثوب، لكنه في المشهد يصبح حدًا بين مرحلتين: وراءه سكون الإنسان مع نفسه، وأمامه ضجيج العالم الذي سيعمل إليه الرسالة. وراءه دفء محدود، وأمامه أذى

قريش وتكذيبها وسخريتها ومقاومتها. ولذلك يبدو الدثار هنا كأنه آخر مساحة صغيرة من الراحة قبل أن يبدأ الطريق الطويل.

كم يحتاج الإنسان إلى أن يفهم أن بعض أشكال الراحة ليست خطأ في ذاتها، لكنها تصبح عائقاً حين يأتي وقت القيام. ليست المشكلة أن تستريح، وإنما أن تجعل الراحة وطناً. وليست المشكلة أن تنكفئ لحظة لترمم روحك، وإنما أن تتحول العزلة عندك من محطة إلى إقامة دائمة. هناك لحظات يكون فيها الدثار رحمة، ولحظات يصبح البقاء تحته هروباً.

إن الرسائل الكبرى تبدأ كثيراً من لحظة خلخلة المألوف. الإنسان يميل بطبعه إلى صناعة نطاق آمن حول حياته: أشخاص يعرفهم، أعمال يجيدها، آراء اعتادها، وصورة يعرف كيف يحافظ عليها؛ ثم تأتي الحقيقة فتطالبه أحياناً أن يترك هذا النظام المريح كله. ليست دعوة الله للإنسان دائماً أن يزيد شيئاً إلى جدوله؛ قد تكون دعوته أن يعيد ترتيب حياته من الأصل.

والعجيب أن الخطاب لم يحتقر حالة التدثر؛ لم يقل له: كيف تدثرت؟ وإنما ناداه منها. فالله أعلم بضعف عبده، وأرحم به من أن يجعل لحظة خوفه وصمة دائمة عليه. إن الضعف الذي تعبده إلى الله قد يصبح أول طريق القوة، والخوف الذي يدفعك إليه قد يصنع منك رجلاً لا يخاف بعد ذلك إلا منه.

وفي هذا عزاء لكل من ظن أن بداياته المترددة تحكم نهاياته. قد تبدأ مرتجفاً، ثم تمضي ثابتاً. قد تستقبل أول الطريق وأنت تبحث عن دثار، ثم تنتهي وأنت تحمل أمة كاملة في قلبك. المهم ألا تتحول اللحظة العابرة إلى تعريف دائم لنفسك.

كان مدثراً.

ثم جاء النداء.

وبين الكلمتين بدأت سيرة الرسالة.

الآية الثانية: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾

حين يصبح الإيمان حركة

أقصر الأوامر قد يحمل أطول الأعمار: قم.

ليست المسألة هنا انتقال الجسد من جلوس إلى وقوف فحسب؛ إنها انتقال الوجود كله من حال إلى حال. قم من دائرة نفسك إلى همّ الناس، قم من السكون إلى المسؤولية، قم من استقبال الوحي إلى تبليغه، قم لأن المعرفة التي لا تنشئ حركةً في صاحبها لم تبلغ بعد تمام أثرها فيه.

القرآن لا يصنع مؤمناً مستغرقاً في خلاصه الفردي وحده. فن عرف أن وراء العالم حساباً، وأن للإنسان رباً، وأن للحياة غاية، لم تعد علاقته بهذه الحقائق علاقة المتفرج. ولذلك ارتبط القيام بالإنذار مباشرة: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾؛ فهناك أناس يمشون نحو مصير لا يعرفونه، وأناس يبددون أعمارهم وهم يظنون أنها ملكهم، وأناس يبنون حياتهم على موازين ستسقط كلها حين يأتي يوم القيامة.

والإنذار ليس تنهياً للخوف، ولا رغبة في تعذيب النفوس؛ بل هو في جوهره صورة من صور الرحمة. إنك حين ترى إنساناً يقترب من خطر ثم تنذره، فأنت لا تكرهه؛ أنت تحاول

إنقاذه. ولذلك كان من سوء فهم الخطاب القرآني أن يُنظر إلى الإنذار باعتباره نقيض الرحمة، مع أن أعظم الرحمة أن تخبر الإنسان بالحفرة قبل أن يقع فيها.

لكن كلمة ﴿قُمْ﴾ تظل أوسع من مجال الدعوة وحده. إنها تكشف قانوناً من قوانين الحياة الإيمانية: لا يكفي أن تتأثر. هناك فرق بين دمة توقظك لحظة، وقرار يغير اتجاهك. كم من إنسان قرأ، وتأمل، وبكى، واقتنع، ثم ظل في الموضع نفسه؛ لأن المسافة بين المعرفة والتحول اسمها القيام.

وقد يكون أصعب ما في القيام أنه يحدث قبل أن تكتمل في عينك أسباب النجاح. لم يقل له: قم حين يؤمن بك الناس، ولا حين تجد الأنصار، ولا حين يصبح الطريق آمناً. إن الرسالة لا تبدأ عندما تنهأ الظروف، بل يبدأ المؤمن بما كُلف به ثم تكشف له الظروف في الطريق.

وهنا تنهاى واحدة من أكثر حيل النفس دهاءً: سأبدأ حين... حين أستعد، حين أرتب حياتي، حين يهدأ الواقع، حين يفهمني الناس، حين أضمن النتيجة. أما القرآن فيضغط كل تلك المسافات بكلمة واحدة: ﴿قُمْ﴾.

فالعبد مسؤول عن صدق القيام، لا عن ضمان الثمرة.

الآية الثالثة: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾

أول زادٍ لمن سيواجهه العالم

قبل أن يأمره القرآن بتفصيل القول للناس، يضع في قلبه الميزان الذي سيحيمه منهم:
﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.

إن من سيقف أمام عالم كامل معاند يحتاج أولاً أن يعرف من الأكبر. فإذا كبر الله في قلبه صغرت أمامه القوى الأخرى في حجمها الحقيقي، أما إذا صغرت معرفة الله في قلبه تضخمت أمامه نظرات الناس وكلماتهم ومصالحهم وأذيتهم حتى تصبح أصناماً نفسية يعبدونها دون أن يشعروا.

والتكبير هنا ليس لفظة تتحرك على اللسان فحسب، بل هندسة جديدة للمقاييس. أن تكبر الله يعني ألا تجعل شيئاً في قلبك أكبر من أمره، ولا خوفاً أكبر من مراقبته، ولا رغبة أكبر من رضاه. إن أزمة الإنسان في كثير من الأحيان ليست أنه لا يعرف الله، وإنما أن أشياء كثيرة في داخله تنازع معرفة الله مقامها: رضا الناس، الخوف على السمعة، شهوة المكسب، الافتتان بالقوة، الرغبة في البقاء مقبولاً.

ولذلك كانت ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ إعداداً نفسياً عظيماً للداعية قبل أن تكون شعاراً؛ لأن من لم يكبر الله في قلبه سيضطر في الطريق إلى تكبير خصومه، ثم تكبير جمهوره، ثم تكبير نفسه.

والرسالة لا يحملها على حقيقتها من ينتظر من الناس أن يمنحوه شعور العظمة؛ لأنها جاءت أصلاً لتعيد العظمة إلى صاحبها الحق.

كم مرة تصبح كلمة إنسان أثقل في نفوسنا من حكم الله؟ وكم مرة نتردد في خير نعرفه لأن شخصاً قد يستهزئ؟ وكم مرة يتوقف الحق عند باب السمعة؟ هنا نفهم أن التكبير ليس مجرد ذكر نردده في الصلاة؛ إنه تحرير يومي للقلب من كل حجم مزيف.

الله أكبر: أكبر من خوفك.

أكبر من خصمك.

أكبر من خسارتك.

أكبر من الصورة التي صنعتها لنفسك وتخاف أن تنهار.

وأكبر حتى من نجاحك؛ فلا يجعلك النجاح ترى نفسك حين كان المفترض أن ترى فضله.

ولهذا بدأ التكليف من هنا: إذا أردت أن تحمل رسالة الله فلا تحمل معها آلهة صغيرة في قلبك.

الآية الرابعة: ﴿وَتَبَايَكَ فَطَهَّرَ﴾

الرسالة التي تبدأ من صاحبها

الطهارة في ظاهر الآية متعلقة بالثياب، وقد تناول المفسرون دلالتها بما يليق بسياقها ولسان العرب، ويبقى المعنى الظاهر في الأمر بالطهارة حاضراً قوياً؛ فالذي سيقف حاملاً للوحي يُربى على النظافة والطهر، في مظهره وما يتصل به. لكن المشهد يفتح للتأمل أيضاً باباً أوسع في معنى التهيؤ للرسالة: إن من يدعو إلى النقاء لا ينبغي أن يتصالح مع القذارة في حياته.

والمهم هنا ترتيب الآيات: كبر ربك، ثم طهر. فالتعظيم الحق لله لا يبقى فكرةً عالية مجردة، بل ينزل إلى تفاصيل الإنسان. الدين الذي يجعل الله أكبر هو نفسه الذي يلتفت إلى الثوب.

وفي هذا إسقاط للوهم القديم الذي يفصل الروح عن السلوك، ويظن أن المعاني الكبرى تعني الإنسان من العناية بالتفاصيل الصغيرة.

إن الله الذي يحدثك عن الآخرة يعلمك كيف تكون في الدنيا.

والطهارة من خصائص هذا الدين العجيب، فالاقتراب من الله لا يتم عبر إهمال الجسد ولا عبر احتقاره، وإنما عبر تهذيبه وتطهيره وجعله جزءاً من عبودية متكاملة. فالإنسان ليس روحاً عالقة في جسد ينبغي أن تهرب منه، وإنما عبد لله بمجملته.

وعلى مستوى التأمل التربوي، فإن صاحب الرسالة يحتاج باستمرار إلى عملية تطهير: تطهير نيته من التماس الشهرة، وقصده من الاستعلاء، وخطابه من الحقد، وطريقته من الظلم. لا لأن هذه المعاني هي التفسير الحرفي الوحيد للثياب، بل لأن الأمر القرآني بالطهر يضع من البداية علاقةً عميقة بين الرسالة والنظافة الداخلية والخارجية.

وهذا أصعب مما يبدو. فمن السهل أن ترى أوساخ الآخرين؛ صاحب الرسالة مهدد أحياناً بأن ينشغل بتنظيف العالم وينسى نفسه. والقرآن، قبل أن يرسله بعيداً، يعيده إلى ما يخصه: ثيابك أنت فطهر.

كأن الإصلاح الحقيقي يبدأ من أقرب دائرة تستطيع أن تمارس عليها سلطانك: ذاتك.

الآية الخامسة: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾

لا يكفي أن تعرف الباطل؛ يجب أن تغادره

الهجر فعل مسافة. ليس مجرد أن تعرف أن الشيء خطأ، بل أن تضع بينك وبينه حداً. ولذلك لم يقل النص: والرجز فاعرفه، أو فاستنكره في نفسك، وإنما قال: ﴿فَاهْجُرْ﴾.

وقد فُسر الرجز بالأوثان وما يتصل بالرجس والعذاب، وفي سياق الدعوة الأولى يظهر الأمر بالمفاصلة مع الشرك واضحاً. إن الرسالة الجديدة لا تستطيع أن تولد وهي تحتفظ في قلبها ببقايا الأصنام القديمة.

لكن للأصنام قدرة عجيبة على تغيير أشكالها. قد يسقط الصنم المجري ويبقى صنم الخوف، ويسقط صنم القبيلة ويبقى صنم الجماعة، ويسقط صنم المال في الخطاب ويبقى حاضراً في القرار. ولهذا فإن الهجرة إلى الله لا تنتهي بقطع علاقة خارجية؛ إنها عملية مستمرة لاكتشاف ما الذي ما زال ينازع الله سلطان القلب.

والهجر أشق من المعرفة؛ لأن الإنسان قد يوقن بفساد شيء ويظل متعلقاً به. يعرف أن علاقة ما تؤذيه ولا يهجرها، يعرف أن عادةً تفسد قلبه ولا يتركها، يعرف أن بيئةً تستهلك إيمانه ولا يبتعد عنها. كأن هناك مسافة طويلة بين قول العقل: هذا رجز، وقدرة الإرادة على قول: سأهجره.

وهنا تأتي السورة حاسمة.

بعض الأشياء لا تحتاج منك إلى تحسين علاقتك بها.

تحتاج إلى مغادرتها.

هناك باطل إذا طال بقاؤك إلى جواره أعاد تشكيل إحساسك به، حتى يصبح مألوفاً، ثم مقبولاً، ثم جزءاً منك. ولهذا كان الهجر حمايةً للبصيرة قبل أن يكون مجرد موقف أخلاقي. والعجيب أن السورة تقول هذا لمن سيذهب إلى الناس؛ أي إن الاقتراب من الخلق من أجل إنقاذهم لا يعني الذوبان في باطلهم. يستطيع المؤمن أن يرحم الإنسان وهو يهجر رجسه، وأن يقترب من الضال بالدعوة دون أن يقترب من الضلال بالموافقة. تلك معادلة الرسالة: قلب رحيم، وموقف واضح.

الآية السادسة: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾

حين يتحرر العطاء من مراقبة المقابل هذه الآية تضع يدها على مرض خفي يستطيع أن يدخل حتى إلى الأعمال النبيلة: أن يعطي الإنسان وهو يراقب ما سيعود إليه. وقد تعددت عبارات المفسرين في توجيهها، ومن أشهر معانيها النهي عن أن يعطي المرء طالباً أكثر مما أعطى، ويدخل في جو الآية كذلك تنقية مقام الرسالة من عقلية المعاوضة الشخصية. فالذي يقوم لله لا ينبغي أن يتحول عطاؤه إلى صفقة مستترة.

والنفس تحب الحساب.

أعطيتك، فإذا أعطيتني؟

وقفت معك، فهل ستقف معي؟

أحببتك، فهل أحببتني بالمقدار نفسه؟

كتبت، فكم صَفَّقُوا؟

دعوت، فكم استجابوا؟

وهكذا يستطيع ميزان السوق أن يتسلل إلى أقدس الأعمال، فيتحول الخير من عبادة إلى استثمار نفسي.

ولذلك يحتاج صاحب الرسالة إلى تحرير شديد من ثقافة المقابل؛ لأن الناس قد لا يشكرونه، وقد يسيئون فهمه، وقد يردون إحسانه بالأذى. فإذا كان لا يستطيع الاستمرار إلا بوقود الثناء توقفت رسالته في أول صحراء من الجحود.

إن العمل لله يمنح الإنسان استقلالاً نفسياً نادراً؛ فهو لا يعني الاستغناء عن الناس بمعنى الكبير، وإنما يعني ألا تجعل اعترافهم بك شرطاً لاستمرار خيرك.

وما أشق هذا المقام.

أن تحسن ثم تمضي.

أن تعطي ثم لا تلتفت.

أن تبذل ولا تظل واقفاً أمام عطائك تطلب من ذاكرة الآخرين أن تحفظه لك.

فالمنة ليست دائماً كلمة يقوها الإنسان لمن أحسن إليه؛ قد تكون مجلساً كاملاً يعقده داخل نفسه يعيد فيه حساب فضله على الناس.

والسورة تريد قلباً خفيفاً من هذا كله.

قلباً يعطي لأن الله يرى.

وهذه كفايته.

الآية السابعة: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾

الصبر حين يصبح عبادة لا اضطراراً

تختم منظومة الإعداد بأمر الصبر، لكن التعبير ليس: واصبر، بل ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

إنه تحديد للوجهة قبل تحديد الفعل.

فالناس جميعاً يصبرون على أشياء كثيرة اضطراراً؛ يصبر الفقير لأنه لا يملك المال، والمريض لأنه لا يستطيع الهرب من المرض، والمقهور لأنه لا يجد سبيلاً إلى دفع القهر. لكن الصبر القرآني يرتفع عن مجرد احتمال الألم إلى عبادة واعية: لربك.

وهاتان الكلمتان تغيران طبيعة الألم كله.

قد تمر بالتجربة نفسها التي يمر بها غيرك، لكن جهة القلب تجعل تجربتك شيئاً آخر. إنسان يتحمل لأنه محاصر، وإنسان يتحمل وهو يرى أن الله يريه ويراه ويكتب له أجره؛ الظرف واحد، لكن العالم الداخلي مختلف.

وكان الصبر ضرورياً في أول الطريق لأن قوله ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ لم يكن تكليفاً مريحاً. سيأتي التكذيب، والسخرية، والاتهام، والمقاطعة، والأذى، والفقد؛ وكل ذلك يحتاج إلى طاقة لا يوفرها الحماس وحده. فالحماس يشتعل سريعاً، أما الرسائل الطويلة فيحملها الصبر.

ولهذا لم يقل: وللنتيجة فاصبر.

ولا: ولا تتصارك فاصبر.

ولا: حتى يمتنعوا فاصبر.

قال: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

وهنا يتحرر المؤمن حتى من استعجال الثمرة؛ لأن الغاية الأولى صارت رضا الله. وقد يتأخر النصر، وقد لا يرى الإنسان في حياته كل ما كان يرجوه، لكن شيئاً واحداً لا يضيع: العمل الذي كان لله.

وهكذا تكتمل الآيات السبع الأولى كأنها دستور صناعة حامل الرسالة:

اخرج من دثارك.

تحرك نحو واجبك.

اجعل الله أكبر من كل ما ستواجهه.

طهر نفسك ومظهرك.

اهجر ما يناقض عبوديتك.

لا تحول عطائك إلى صفة.

ثم اصبر، لا لنفسك، ولا للجمهورك، ولا لمشروعك الشخصي، وإنما لربك.

وإذا تأملت هذه البداية أدركت أن القرآن لم يرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى تغيير العالم قبل أن يبني داخله الموازن التي ستحميه وهو يغيره. فالمهمة الكبيرة تحتاج قلباً أكبر من المغريات التي ستقابه، وأكبر من المخاوف التي ستعترضه.

ومن هنا تبدأ سورة المدثر.

لا من ساحة المواجهة.

بل من القلب الذي سيدخلها.

ولا من الجمهور الذي ينبغي أن يتغير.

بل من الإنسان الذي سيحمل إليه التغيير.

لقد كان أول أمر:

﴿قُمْ﴾.

وكان آخر ما يهيئه للقيام:

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

وبينهما نشأت شخصية الرسالة كلها.

الفصل الثاني

حين يُنْقَر في الناقور وتسقط أوهام النعمة

﴿فَإِذَا نَقَرَ فِي النَّاقُورِ﴾ فذلِكَ يَوْمَئِذٍ عَسِيرٌ ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾ وَبَنِينَ شُهَدَاءَ ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا ﴿

الآية الثامنة: ﴿فَإِذَا نَقَرَ فِي النَّاقُورِ﴾

الصوت الذي يني كل الأصوات

بعد أوامر البناء الهادئة والحاسمة في مطلع السورة، يأتي الانتقال فجأة إلى مشهد القيامة: ﴿فَإِذَا نَقَرَ فِي النَّاقُورِ﴾. والناقور هو الصور الذي يُنفخ فيه، لكن التعبير القرآني لا يقدمه لنا بوصفه مجرد أداة، بل يضعنا أمام حدث كوني يقطع استرسال العالم ويضع نهاية لكل ما كان الناس يظنون أنه دائم.

كم هي كثيرة الأصوات التي تملأ الدنيا: أصوات الأسواق، والخصومات، والمدائح، والوعود، والحروب، والضجيج السياسي، وضجيج النفوس، وصوت الإنسان حين يبالغ في شأن نفسه، وصوت الجماعات وهي توهم أتباعها أن التاريخ لن يتحرك إلا بها، ثم يأتي صوت واحد يطوي كل هذه الأصوات.

ذلك هو الناقور.

إنه لا يستأذن أحداً.

لا ينتظر اكتمال مشروع، ولا انتهاء صفقة، ولا ترتيب وصية، ولا مصلحة خصوم. إنه الإعلان بأن الزمن الذي كان الإنسان يتصرف فيه كأنه ملكه قد انتهى.

وما أعجب أن السورة بعد أن قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾، تريه هنا موضوع الإنذار في صورته النهائية. كأن الرسالة كلها كانت إشفافاً من هذه اللحظة؛ لأن الإنسان الذي يرفض الإنذار اليوم سيواجه غداً ما كان يُنذر منه.

وفي لفظ ﴿نُقِرَ﴾ قوة تناسب المشهد؛ فالنقر إيقاع مفاجئ، نافذ، يخرق السكون. وكأن الحياة كلها، مهما استطلت، ليست إلا سكوناً مؤقتاً قبل ذلك النداء العظيم.

ومن هنا يخرج التأمل القاسي والجميل معاً: لا تجعل ضجيج العالم ينسبك الصوت الأخير.

كل الأصوات التي تخيفك الآن ستسكت.

كل الأصوات التي تمدحك ستسكت.

كل الأصوات التي أغرتك أن تؤخر توبتك ستسكت.

ويبقى النداء الذي لا يستطيع أحد أن يؤجله.

الآية التاسعة: ﴿فَذَلِكَ يَوْمٌ مِّنْ يَّوْمٍ عَسِيرٍ﴾

حين تسقط خفة الدنيا

الدنيا تمنح الإنسان قدرة عجيبة على الهرب. يستطيع أن يؤخر السؤال، وأن يغير الحديث، وأن ينتقل من مكان إلى مكان، وأن يلهي نفسه، وأن يستبدل قضيةً بقضية؛ لكن يوم القيامة ليس فيه ممر خلفي.

ولهذا وصفه الله بأنه ﴿يَوْمَ عَسِيرٌ﴾.

العسر هنا ليس شدة جسدية فحسب، بل انكشاف كامل. إنسان لا يستطيع أن يختبئ وراء اسمه، ولا وراء الناس، ولا وراء السردية التي صنعها لنفسه، ولا وراء الصورة التي كان يقدمها للعالم. يومٌ تسقط فيه كل الوسائط، ويبقى العمل وحده واقفاً.

والإنسان في الدنيا ينجح أحياناً في تزيف المعادلة. قد يصنع من الخطأ بطولة، ومن الأنانية حكمة، ومن الجبن مصلحة، ومن الترف زهداً لغوياً، ومن الظلم حزمًا؛ لكنه يوم القيامة لا يمتلك اللغة التي تغير حقيقة الأشياء.

وهنا يكمن العسر الحقيقي.

ليس فقط في أن يرى الإنسان العقوبة.

بل أن يرى نفسه بلا أقنعة.

إن بعض الناس يحتمل الألم، لكنه لا يحتمل الحقيقة. ويوم القيامة يوم الحقيقة المطلقة.

الآية العاشرة: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابٌ عَسِيرٌ﴾

حين تكون الصعوبة ثمرة موقف

لم تقل الآية إن اليوم عسير على الجميع بالدرجة نفسها، بل خصت الكافرين بهذا الوصف:
﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

وهذا يردنا إلى معنى جوهري في السورة: المصير ليس حدثاً عشوائياً يقع على البشر بلا صلة بما كانوا عليه؛ بل هو امتداد للحقيقة التي اختاروها. من عاش رافضاً لله، معانداً لآياته، مستغنياً بماله ونفسه، سيجد يومئذ أن كل ما كان يستند إليه قد اختفى.

وما أشد التعبير: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

كأن القرآن لا يكتفي بالعسر، بل ينفي عنه كل منفذ للتخفف.

في الدنيا قد يشتد عليك أمر ثم تجد صديقاً، أو وقتاً، أو مالاً، أو فرصة أخرى؛ أما هناك فالمعادلة مختلفة، لأن الزمن نفسه لم يعد مجالاً للإصلاح.

ولذلك كان الإنذار رحمة قبل فوات الإمكان.

ما دام الإنسان في الدنيا، فما يزال في منطقة «يمكن».

يمكن أن يرجع.

يمكن أن يعتذر.

يمكن أن يصلح.

يمكن أن يصدق.

يمكن أن يبدأ من جديد.

أما ذلك اليوم، فهو يوم انكشاف النتائج لا يوم إنشاء البدايات.

الآية الحادية عشرة: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾

الإنسان الذي نسي بدايته

تنتقل السورة من المشهد الكوني إلى فرد بعينه، فيقال للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾.

وهي آية تخلع عن الإنسان كل ما التصق به بعد ولادته.

ماله ليس معه في أصل خلقه.

أبناءؤه لم يكونوا معه.

مكانته لم تكن معه.

اسمه الاجتماعي لم يكن معه.

دخل إلى الدنيا وحده.

وهذا وحده كافٍ ليهدم كثيراً من غروره.

إن الإنسان ينسى بسهولة أن كل ما يحيط به جاء بعده، وأنه لم يصنع وجوده بنفسه. يبدأ فقيراً إلى الله في أصل الخلق، ثم قد تمضي به الأيام حتى يتصرف كما لو كان صاحب الفضل الأول على نفسه.

﴿خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ ليست فقط وصفاً للحظة البداية؛ إنها تذكير بمصدر الملكية.

من الذي أوجدك قبل أن تملك؟

من الذي أعطاك قابلية أن يكون لك مال وأولاد ومكانة؟

من الذي جعل قلبك ينبض قبل أن تعرف معنى المال؟

إن النعمة حين تُفصل عن أصل الخلق تصبح مادة للغرور، أما حين تُربط بالخالق تتحول إلى باب شكر.

وأشد الناس تعرضاً للغفلة هم الذين طالت بهم النعمة حتى اعتادوها؛ فالاعتiad يجعل العطاء يبدو حقاً طبيعياً، ثم ينسى الإنسان دهشة البداية.

الآية الثانية عشرة: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾

حين يتحول العطاء إلى اختبار

لم يقل: كان له مال، بل قال: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ﴾.

من هنا تبدأ الحقيقة التي تقلب مفهوم الملكية كله.

المال في يد الإنسان، لكنه في أصله جعل إلهي. ومن ثم فالسؤال الأخلاقي لا يبدأ من: كم عندك؟ بل: كيف فهمت ما عندك؟

هناك من يرى المال امتداداً لقدرته.

وهناك من يراه امتداداً للنعمة.

والفرق بين الرؤيتين يصنع شخصيتين مختلفتين تماماً.

فالذي يرى ماله دليلاً على ذاته يميل إلى التعالي، أما الذي يراه عطاءً من الله فيعرف أن بين يديه أمانةً قابلةً للزوال.

ووصف المال بأنه ﴿مُدُودًا﴾ يزيد المشهد وضوحاً: ليس مالاً عابراً محدوداً، بل نعمة واسعة متصلة، ما يزيد الحجة على صاحبه؛ لأن النعمة كلما اتسعت كان المنتظر أن يتسع معها الشكر.

لكن النفس قد تسلك الطريق المعاكس.

كلما زادت النعمة زادت اعتياداً.

وكلما اعتادت، قل إحساسها بالمنعم.

وهذا من أخطر قوانين الغفلة: قد تكون كثرة العطاء مجاباً إذا لم يصحبها وعي.

ليست كل زيادة اقتراباً.

قد تزيد أموالك ويقل قلبك.

وقد يتسع بيتك وتضيق روحك.

وقد تمتد تجارتك وتقلص صلتك بالله.

والمشكلة ليست في النعمة، بل في القراءة التي تصنعها النفس للنعمة.

الآية الثالثة عشرة: ﴿وَبَيْنَ شُهُودًا﴾

حين تتحول القوة الاجتماعية إلى وهم أمان

البنون في مجتمع قريش كانوا قوة وسنداً ووجاهة، ووصفهم بأنهم ﴿شُهُودًا﴾ يدل على حضورهم معه وعدم تفرقهم في طلب المعاش، بما يعكس سعة حاله ومكانته.

والمشهد هنا يكتمل: مال ممتد، وأبناء حاضرون، ومكانة اجتماعية محمية.

وهكذا يشعر الإنسان أنه محاط.

لكنه قد يخطئ في تفسير هذا الإحاطة.

فما حولك قد يسندك في الدنيا، لكنه لا يستطيع أن يلغي حقيقتك أمام الله.

العائلة نعمة.

الأبناء نعمة.

الحضور الاجتماعي نعمة.

لكنها كلها تتحول إلى خدعة حين تجعل الإنسان يظن أنه أصبح محصناً من العقاب.

وكم من إنسان لم يفسده المال وحده، وإنما أفسده أيضاً شعوره أن وراءه من يدافع عنه مهما فعل.

حين يكثر المصفقون يقل أحياناً صوت الضمير.

وحين يحيط بك قومك قد توهمك الكثرة أنك على صواب.

لكن الآخرة تعيد الفرد إلى فرديته الأولى.

جئت وحدك.

وستقف مسؤولاً عن نفسك.

وهذه من أقسى الحقائق على الإنسان الذي عاش عمره مختبئاً داخل الجماعة.

الآية الرابعة عشرة: ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾

الحياة حين تصبح مفروشة أكثر مما ينبغي

التمهيد في اللفظ صورة مريحة: طريق ميسر، أسباب مهيأة، دنيا مفروشة أمام صاحبها.

والتكرار في ﴿مَهَّدْتُ... تَمْهِيدًا﴾ يضاعف المعنى؛ كأن النعمة لم تكن عارضة، بل إحاطة واسعة بالتيسير.

لكن السورة تعلمنا هنا قاعدة شديدة الأهمية: سهولة الطريق ليست دائماً علامة رضا.

قد يمهّد لك في الدنيا وأنت تسير إلى الخسارة.

وقد تضيق بك الدنيا وأنت أقرب إلى الله.

وهذه الحقيقة تصدم القراءة السطحية للحياة؛ لأن الإنسان يميل إلى اعتبار التيسير تزكية، والعسر إدانة.

لكن القرآن لا يمنح النعم هذا المعنى المطلق.

المال امتحان.

الصحة امتحان.

الوجاهة امتحان.

والقدرة على الوصول إلى ما تريد امتحان.

حتى التمهيد نفسه قد يكون اختباراً في غاية الدقة: هل سيقودك إلى الشكر أم إلى الاستغناء؟

وكلما صار الطريق مفروشاً أمام الإنسان احتاج إلى بصيرة مضاعفة، لأنه قد يظن أن

الطريق الصحيح هو كل طريق يُفتح له.

وليس الأمر كذلك.

فقد يفتح لك باب وتكون نجاتك في ألا تدخله.

وقد يتعسر عليك باب وتكون الرحمة محتبئة في إغلاقه.

الميزان ليس السهولة وحدها.

الميزان: أين الله في هذا الطريق؟

الآية الخامسة عشرة: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾

جوع النفس الذي لا تشبعه النعمة

هذه الآية تكشف مشهداً شديداً إنسانية.

بعد المال، والبنين، والتمهيد، ماذا بقي؟

المزيد.

وهذه واحدة من أعجب مفارقات النفس: لا تنتهي حاجتها بالامتلاك، بل قد يبدأ جوعها

الحقيقي بعد الامتلاك.

الطمع لا يقول: أعطني ما أحتاج.

بل يقول: أعطني أكثر لأن «الأكثر» أصبح في ذاته غاية.

وقد عبّر القرآن بـ ﴿ثُمَّ﴾ ، وكأن ما سبق كله كان يفترض أن يقوده إلى الشكر، لكنه انتهى إلى مزيد من الطلب.

وهنا يظهر الفارق بين النعمة حين تقع في قلب شاكر، والنعمة حين تقع في قلب مستهلك.

القلب الشاكر يقول: كيف أؤدي حق ما عندي؟

والقلب الطامع يقول: لماذا لم أحصل على أكثر؟

إن أخطر ما يفعله الاعتياد بالإنسان أنه يحو ذاكرة العطاء.

ما كنت تتمناه بالأمس يصبح اليوم شيئاً عادياً.

ثم لا تعود تراه.

ثم تبدأ الشكوى مما لم تأخذ.

وهكذا يستطيع الإنسان أن يعيش غارقاً في النعم، وقلبه يتصرف كأنه محروم.

إن الفقر النفسي لا يعالج بكثرة الأشياء.

وقد يكون أشد الناس فقراً من يملك كثيراً ولا يعرف كلمة: كفى.

الآية السادسة عشرة: ﴿كَأَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِندًا﴾

حين يصطدم الطمع بحدّ الحقيقة

تأتي ﴿كَآءَ﴾ كقطع حاسم لمسار الطمع.

ليس كل ما تطلبه سيأتي.

وليس استمرار النعمة وعداً أبدياً.

فالإِنسان كان يقرأ ما عنده كأنه ضمان للمزيد، فجاء القرآن ليكشف العلة: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَآيَاتِنَا عَنِيداً﴾.

وهنا تنتقل القضية من المال إلى الموقف من الوحي.

المشكلة ليست أنه غني.

وليس أن له أبناء.

وليس أنه يريد زيادةً مجردة.

المشكلة أن قلبه يقف من آيات الله موقف العناد.

والعناد أعمق من الجهل.

الجاهل قد يتعلم.

أما المعاند فقد يرى ثم يرفض.

وقد يفهم ثم يقاوم.

وقد تقترب الحجة منه، فيبتكر وسائل جديدة للابتعاد عنها.

ولهذا فإن العناد مرض في الإرادة أكثر منه نقصاً في المعلومات.

كم من قضية لا يحتاج فيها الإنسان إلى دليل جديد، بل إلى قلب أقل مكابرة.
وكم من خلاف مع الحق لا سببه غموض الحق، بل خوف النفس مما سيترتب على قبوله.
فالحق حين يدخل حياتك لا يكتفي بأن يغير رأيك.
قد يغير علاقاتك.

مصالحك.

صورتك.

موقعك.

ومن هنا يبدأ العناد.

إنه دفاع النفس عن نظامها القديم.

الآية السابعة عشرة: ﴿سَأْرَهَقُهُ صَعُودًا﴾

الطريق الذي يصنعه العناد لنفسه

تختم هذه المجموعة بصورة رهيبة: ﴿سَأْرَهَقُهُ صَعُودًا﴾.

والإرهاق تكليف بما يشق ويثقل، والصعود يوحي بمسار لا راحة فيه، وقد ورد في التفسير أنه عذاب شاق في النار.

لكن صورة الصعود تفتح أيضًا معنى بالغ الدقة في تأمل مسار العناد: إن من يرفض الحق لأنه يظن أن الرفض أسهل قد ينتهي إلى أشق طريق.

الطاعة قد تبدو ثقيلة في أولها، لكنها تفتح بعد ذلك أبواب السكينة.

أما المعصية فقد تبدو سهلة في أولها، ثم تتحول إلى جبل يحمله الإنسان فوق قلبه.

الكذبة تحتاج إلى كذبة.

والعناد يحتاج إلى تبرير.

والتبرير يحتاج إلى بناء كامل من الأوهام.

ثم يجد الإنسان نفسه يدافع عن موقف لم يعد يعرف لماذا اتخذته أول مرة.

هذا هو الصعود النفسي الذي تلحبه الآية من بعيد: كلما ابتعد عن الحق احتاج جهداً أكبر ليستمر بعيداً عنه.

وقد يكون الاستسلام لله في لحظة واحدة أرحم من سنوات من مقاومة ما يعرفه القلب.

إن الإنسان لا يتعب دائماً من الطريق الصعب.

قد يتعب من إصراره على الطريق الخطأ.

خاتمة الفصل

من التمهيد إلى الصعود

بدأ المشهد برجل خُلِقَ وحيداً، ثم أحاطته النعمة من كل جانب: مال ممتد، وبنون حاضرون، وطريق ممهد. كان المتوقع أن تؤدي هذه النعم إلى خشوع أعمق، لكن النفس قرأتها قراءة أخرى: أنا مستحق، وأنا قوي، وأنا جدير بالمزيد.

وهنا تكشف السورة مأساة النعمة حين تنفصل عن المنعم.

إن المال لا يفسد بذاته، والبنون لا يفسدون بذاتهم، والتمهيد ليس مذموماً؛ لكن المشكلة تبدأ حين تتحول النعم من إشارات إلى الله إلى جدران تحجبه عن القلب.

كان ينبغي لكل نعمة أن تقول له: اشكر.

لكنه سمعها تقول: اطمع.

وكان ينبغي للتمهيد أن يقوده إلى التواضع.

لكنه قاده إلى الاستعلاء.

وكان ينبغي للآيات أن توقظه.

فقابلها بالعناد.

وهكذا انتقل من ﴿مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهيداً﴾ إلى ﴿سَأَرْهُقُهُ صَعُوداً﴾.

يا لها من مسافة هائلة بين التعبيرين.

الأول طريق ممهد.

والثاني صعود مرهق.

وبينهما وقف موقف واحد: العناد.

وهنا تضع سورة المدثر يدها على قانون من أشد قوانين النفس خطورة: ليست النعمة ضماناً للهداية، ما لم يكن القلب مستعداً لأن يرى فيها الله.

فقد تعطيك الدنيا أسباب الراحة كلها، ثم تصنع أنت من راحتك طريقاً إلى التعب.

وقد يضيق عليك الطريق، ثم تصنع من صبرك سلماً إلى الله.

ليست القضية فيما وُضع في يدك.

بل فيما صنعت به داخل قلبك.

الفصل الثالث

تسريح العقل حين يتأمر على الحقيقة

الآيات 18-25

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۖ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ نَظَرَ ۖ ثُمَّ عَبَسَ
وَسَرَ ۖ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۖ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۖ﴾

الآية الثامنة عشرة: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾

حين يعمل العقل ضد ما عرفه

هذه واحدة من أكثر الآيات إيحاءً في السورة؛ لأنها لا تصف رجلاً جاهلاً، ولا رجلاً عاجزاً عن النظر، بل رجلاً يفكر.

وهنا يبدأ الخطر.

فالإنسان كثيراً ما يظن أن العقل وحده كافٍ للهداية، وأن الذكاء إذا ارتفع ارتفع صاحبه بالضرورة إلى الحق. لكن القرآن يكشف أن العقل أداة، وأن الأداة تستمد قيمتها من الوجهة التي تستخدم فيها.

يمكن للعقل أن يبحث عن الحقيقة.

ويمكنه أن يبحث عن ذريعة للهروب منها.

يمكنه أن يفكك الوهم.

ويمكنه أن يبني وهماً أكثر تعقيداً.

يمكنه أن يتواضع أمام الدليل.

ويمكنه أن يستعمل كل مهاراته لجعل الدليل نفسه متبهماً.

﴿فَكَرَّ وَقَدَّرَ﴾.

كأننا أمام غرفة داخلية مغلقة، يجلس فيها الإنسان مع نفسه يزن عباراته، ويختار ما سيقوله، ويبحث عن التوصيف الذي يحقق له غايته.

والمشكلة ليست في التفكير.

إنما في النية التي تقود التفكير.

ذلك لأن العقل إذا بدأ من نتيجة مقررة مسبقاً لم يعد باحثاً، بل صار موظفاً عند الهوى.

إنه لا يسأل: ما الحقيقة؟

بل يسأل: كيف أقول ما يحفظ موقفني؟

وهذا الفارق صغير في العبارة، هائل في المصير.

كم من إنسان لا يحتاج إلى زيادة معلومات، بل يحتاج إلى قدر من النزاهة مع نفسه. يرى الدليل، ثم يلتف حوله. يشعر بقوة الحجّة، ثم يبحث عن ثغرة لغوية. يضيق صدره بالحقيقة، لا لأنها غامضة، بل لأنها واضحة أكثر مما يريد.

هنا يصبح التفكير نفسه امتحاناً.

ليس كل من يفكر ينجو.

إنما ينجو من جعل فكره خادماً للحق، لا خادماً للكبرياء.

الآية التاسعة عشرة: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَرٌ﴾

إدانة الخطئة قبل إدانة العبارة

يأتي هذا التعبير شديداً، دعاءً عليه وإظهاراً لقبح ما دبره: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَرٌ﴾.

وكان القرآن لا ينتظر حتى ينطق بعبارته الأخيرة؛ بل يدين العملية التي أنتجتها.

فالفساد قد يبدأ قبل الكلمة.

يبدأ في النية التي تصوغ الكلمة.

قد تكون العبارة منمقة، لكن الطريق الذي أنتجها فاسد.

وقد يكون الاستدلال مرتباً، لكن الغاية التي وجهته منحرفة.

وهنا يلفتنا القرآن إلى أخلاق التفكير، لا إلى نتائج فقط.

فالإنسان مسؤول عما يريد من عقله.

مسؤول عن الطريقة التي يختار بها الأدلة.

مسؤول عن المواضع التي يغض الطرف عنها.

مسؤول عن المسافات التي يتركها بين ما يعرفه وما يعلنه.

إن الفكر ليس منطقة محايدة خارج الأخلاق.

له تقوى.

وله فجور.

له أمانة.

وله خيانة.

وقد يظن صاحب الذكاء أن قدرته على تركيب الكلام تمنحه نوعاً من الحصانة، لكنه لا

يدري أن ذكاه نفسه قد يصبح حجةً عليه؛ لأنه رأى أكثر مما رأى غيره، ثم اختار أن

ينحرف أكثر.

الآية العشرون: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَرٌ﴾

حين يتكرر الدم لأن الانحراف كان متعمداً
يعاد التعبير مرةً أخرى.

وليس في القرآن تكرار فارغ.

إن إعادة الجملة هنا توجي بثقل ما جرى داخل النفس.

لم تكن زلّةً عابرة.

ولا كلمة اندفعت بلا روية.

كان هناك ترتيب، ومراجعة، وتقدير.

ثم جاء الاختيار.

ولهذا يعاد الدم.

كأن السورة تقول: تأملوا كيف صنع موقفه.

تأملوا كيف رأى ثم مال.

كيف قاس ثم حاد.

كيف عرف قوة ما أمامه، ثم لم يسمح لهذه القوة أن تهديه.

إن بعض الانحرافات لا تنشأ من سرعة القرار، بل من طول المفاوضة مع الباطل حتى

يصبح الإنسان شريكاً واعياً فيه.

وهذا أخطر.

فانخطيئة التي يفعلها المرء تحت غلبة ضعف قد يندم عليها سريعاً.

أما الخطيئة التي يبني لها فلسفةً كاملة فقد يصعب عليه الرجوع منها؛ لأنه لم يعد يدافع عن فعل فقط، بل عن صورة نفسه.

وكلما استثمر الإنسان ذكاه وسمعته في موقف باطل، صار التراجع أثقل على كبريائه.

لأن الرجوع يومئذ لا يعني أن يقول: أخطأت.

بل يعني أن يهدم البنيان الذي صنعه بنفسه.

وهنا يشتد الامتحان.

الآية الحادية والعشرون: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾

النظر الذي لا يريد أن يرى

عبارة قصيرة، لكنها بالغة التصوير.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾.

أي نظر ليرى ماذا يصنع، وكيف يخرج بالكلمة التي يريد.

لكن ليس كل نظر إبصاراً.

قد تنظر العين إلى الشيء، ويكون القلب قد قرر ألا يراه.

وقد يتأمل الإنسان النص، أو الحدث، أو الحجة، لكنه يدخل عليها بتفسير جاهز.

وهكذا تتحول الرؤية إلى إجراء شكلي.

إن أخطر ما يصيب الوعي أن يظل يمارس أفعال المعرفة بعد أن يفقد روح المعرفة.

يقرأ، لكنه لا يريد أن يتعلم.

يسأل، لكنه لا يريد جواباً.

يناقش، لكنه لا يريد أن يُراجع نفسه.

ينظر، لكنه قد حدد سلفاً ما ينبغي أن يراه.

هذا هو النظر الذي لا يفتح نافذة، بل يضيف ستاراً.

والقرآن هنا يصور العقل المعاند في تفاصيل حركته، كأنه يبطن المشهد أمامنا لنرى كيف

يولد الباطل داخل الإنسان.

قبل الكلمة كان هناك تقدير.

وقبل التقدير كان هناك موقف.

وبعد النظر ستبدأ الملاح الخارجية تكشف ما جرى في الداخل.

الآية الثانية والعشرون: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَ﴾

حين تفضح الملاح ما أخفاه العقل

بعد النظر تغير الوجه.

﴿عَبَسَ وَبَسَ﴾

والعبوس انقباض الوجه، والبسور أشد منه في الكلوح والتغير.

كأن الصراع الذي كان في الداخل لم يعد قادراً على الاختباء.

وهنا لمسة إنسانية بالغة الدقة: الجسد أحياناً يفصح ما تريد اللغة إخفاءه.

الوجه سجل سريع لما يحدث في القلب.

وقد يستطيع الإنسان أن يرتب حجته، لكنه لا يستطيع دائماً أن يرتب ملامحه.

فالخلق حين يضغط على الباطن يترك أثراً.

والإنسان حين يقاوم ما يعرفه يعيش توتراً لا يمر بلا ثمن.

فليس العناد راحةً.

إنه مجهود داخلي.

والكذب ليس وضعاً طبيعياً للقلب.

إنه يحمل صاحبه على مراقبة أقواله، وتعديل رواياته، والانتباه إلى التناقضات، والدفاع عن

الصورة.

أما الصدق، فعلى شدته أحياناً، يمنح النفس بساطةً لا يعرفها المتكلف.

إنه لا يحتاج إلى هندسة وجهه في كل مرة.

ولا إلى اختراع تفسير جديد لما قاله بالأمس.

في العبوس والبسور ترى الإنسان وهو يقاوم الحقيقة بجسده كله تقريباً.

كأن الحقيقة أمامه ليست مجرد فكرة.

بل خطر على كبريائه.

الآية الثالثة والعشرون: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾

لحظة الانتقال من الحيرة إلى القرار

هنا تبلغ الرحلة النفسية نقطة الحسم.

فكر.

قدر.

نظر.

عبس.

بسر.

ثم: ﴿أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾.

الإدبار حركة.

والاستكبار موقف باطني.

وكان الخارج والداخل اتفقا أخيراً: الجسد ابتعد، والقلب تعاضم.

لم يعد الأمر مجرد نقاش عقلي.

صار قراراً وجودياً.

وقد يكون هذا من أخطر ما يقع للإنسان: أن تتحول الحجّة عنده من موضوع للتفكير إلى تهديد لهويته.

عندها لا يعود يقاوم الفكرة لأنها ضعيفة، بل لأنها تطالعه بصورة لا يريدّها عن نفسه.
الحقيقة تقول له: لست كما تظن.

فيلجأ إلى الاستكبار.

لأن التواضع كان سيقتضي منه أن يعيد ترتيب مقامه.
والاستكبار في جوهره رفض للانحناء أمام ما هو أعلى منك.
ليس فقط أن تظن نفسك عظيماً، بل أن ترفض الاعتراف بأن الحق يملك عليك سلطاناً.
وهكذا نفهم لماذا كانت آفة الكبر من أعظم حجب الهداية.
فالجاهل قد يقول: علّني.

والخطيئ المتواضع قد يقول: صح لي.

أما المستكبر فيجد في التصحيح إهانةً لذاته.

ولهذا قد يختار أن يخسر الحقيقة حتى لا يخسر صورته أمام نفسه.
وما أفدح الصفقة.

الآية الرابعة والعشرون: ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾

حين لا تجد الحجّة منفذاً فتبدأ صناعة التهمة

بعد كل تلك الرحلة الطويلة، خرجت النتيجة.

﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾.

والتهمة هنا ليست نتيجة بحث نزيه، بل ثمرة موقف سابق.

وهذا بالغ الأهمية.

فلو قرأنا العبارة وحدها قد نظن أنها رأي.

لكن السورة عرضت لنا ما قبلها حتى نعرف أنها صناعة.

إنها لم تبدأ من الدليل.

بدأت من الحاجة إلى موقف.

وهذا يفسر كثيراً من المواقف البشرية: الإنسان أحياناً لا يقتنع بالتهمة، بل يحتاج إليها.

يحتاج إلى تسمية ما أمامه باسم يسمح له أن يرفضه.

فإذا أزعجه الحق قال: تطرف.

وإذا كشفه النقد قال: حسد.

وإذا خالفه المستقل قال: خيانة.

وإذا هزت الحجّة منطقته قال: سحر.

الأسماء أحياناً ليست وصفاً للواقع.

إنها جدران يبنينا الإنسان حتى لا يرى الواقع.

والتعبير ﴿سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ يرمي الوحي خارج مجال الحقيقة ويضعه في مجال التلاعب والتأثير.

وهي حيلة قديمة: إذا لم تستطع هدم الرسالة فاتهم أثرها.

إذا رأيت الناس يتأثرون بها، فلا تسأل: لماذا أثرت فيهم؟

قل: إنهم مسحورون.

وهكذا يعني الإنسان نفسه من مواجهة قوة المعنى.

لكن الوحي لا يفقد حقيقته لأن المعاند أعاد تسميته.

الشمس لا تصبح ظلاماً لأن شخصاً قرر أن يغمض عينيه.

الآية الخامسة والعشرون: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾

محاولة إنزال الوحي إلى مستوى يمكن السيطرة عليه

هذه هي الخلاصة التي أراد الوصول إليها.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾.

ومعنى التهمة واضح: نفي الوحي عن القرآن، وردّه إلى كلام بشري.

لكن وراء العبارة معنى نفسياً أعمق.

إن الإنسان إذا نجح في إقناع نفسه أن الوحي مجرد كلام بشر، فقد أراح نفسه من سلطانه.

لأن كلام البشر يمكن مناقشته بوصفه رأياً.

يمكن قبوله أو رفضه.

يمكن وضعه إلى جوار أقوال أخرى.

أما إذا كان كلام الله، فالتقضية تتغير.

هنا لم يعد الأمر مسألة ذوق.

ولا رأي.

ولا مساحة تفاوض مريحة.

صار هناك خالق يتكلم، وعبد يسمع.

وهذا ما لا يحتمله المستكبر.

لهذا يحاول أولاً أن ينزل الوحي من مقامه؛ لأن إنزال الوحي أسهل عنده من إنزال نفسه من مقام الكبرياء.

ويمكن أن نرى في هذا نمطاً يتكرر في النفس البشرية: حين يكون المطلوب من الإنسان أن يخضع للمعيار، قد يحاول بدلاً من ذلك أن يخفض مكانة المعيار.

فإذا عجز عن أن يغير الحقيقة، غيّر اسمها.

وإذا عجز عن أن يبلغ ميزانها، اتهم الميزان.

وإذا خاف أن يقف أمام الوحي، حاول أن يجعله كلاماً بشرياً داخل سوق الكلام.

لكن الحقيقة لا تفقد مصدرها لأن الإنسان غير اسمها.

خاتمة الفصل

هذا المقطع من سورة المدثر ليس حكايةً عن رجل مضى فحسب.

إنه مرآة شديدة القرب من الإنسان.

فكل واحد فينا يملك قابلية أن يستخدم عقله بطريقتين:

أن يجعله طريقاً إلى الحقيقة.

أو أن يجعله حارساً لهواه.

والمأساة لا تبدأ حين يتوقف الإنسان عن التفكير.

بل قد تبدأ حين يصبح التفكير شديد الكفاءة في خدمة ما يريد مسبقاً.

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾.

فكر، لكنه لم يتواضع.

ونظر، لكنه لم يُبصر.

وتغيّر وجهه، لأنه كان يحارب في داخله شيئاً يعرف قوته.

ثم أدبر.

ولم يكن الإدبار نهاية الطريق فقط.

سبقه الاستكبار.

كأن السورة تريد أن تقول إن أصل المأساة لم يكن ضعف الحجّة، بل تضخم الذات.
فالحق لا يحتاج فقط إلى عقل يفهمه.

يحتاج قلباً يقبل أن يخني له.

ومن هنا نفهم أن الهداية ليست مسألة ذكاء مجرد.

قد يكون الإنسان شديد الذكاء، لكنه ضعيف النزاهة.

وقد يكون واسع الثقافة، لكنه ضيق الصدر بالحق.

وقد يكون قوي البيان، لكنه يستخدم البيان لستر ما يعرفه في داخله.

ولهذا فإن من أعمق الأدعية التي يحتاجها الإنسان ألا يتركه الله إلى عقله إذا فسد قصده؛

لأن العقل حين يبتعد عن نور الوحي يستطيع أن يصنع لصاحبه متاهةً بالغة الإقناع.

إن أخطر سجون الإنسان تلك التي بناها بنفسه ثم سماها قناعة.

وأخطر الأوهام تلك التي شارك ذكاؤه في زخرفتها.

وأخطر الهزائم أن ينتصر الإنسان في الجدل ويخسر قلبه.

وهكذا تنتهي هذه الآيات عند عبارة:

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾.

ولكن السورة لن تترك هذه الكلمة معلقة.

سيأتي الرد لا بجدل طويل، بل بمشهد واحد رهيب:

الفصل الرابع

سَقَرَ: حين يصبح العذاب امتحاناً للقلوب قبل أن يكون عذاباً للأجساد

الآيات 26-31

﴿سَأْصَلِيهِ سَقَرَ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿﴾ لَوَاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴿﴾ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴿﴾ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِّلْبَشَرِ ﴿﴾

الآية السادسة والعشرون: ﴿سَأْصَلِيهِ سَقَرَ﴾

الكلمة التي قيلت في الدنيا والمصير الذي ينتظرها

بعد أن قال الرجل عن القرآن: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾، لم يأت الرد في صورة مناظرة مطولة، وإنما جاء حاسماً: ﴿سَأْصَلِيهِ سَقَرَ﴾.

كأن السورة تريد أن تقول: لقد انتهى زمن التلاعب بالأسماء.

يمكن للإنسان في الدنيا أن يسمى الوحي سحراً، وأن يسمى الحق باطلاً، وأن يزين لنفسه المواقف، لكن الآخرة لا تعمل بالأسماء التي يخترعها الناس.

هناك تسقط المصطلحات.

وتبقى الحقائق.

وسَقَر اسم من أسماء جهنم، وفي مجرد ورود الاسم رهبة. فالقرآن لا يقدم النار دائماً بوصفها فكرة عامة بعيدة، بل يمنحها أسماء وصوراً وأوصافاً حتى لا تتحول في وعي الإنسان إلى مفهوم بارد.

الإنسان ينسى ما لا يتخيله.

ولهذا يعيد القرآن تقريب مشهد الآخرة إلى القلب.

ولا ينبغي أن يقرأ المؤمن هذا الوعيد ببرود، ولا أن يتعامل معه كما لو كان مشهداً خاصاً بغيره. فالقرآن لا يروي أخبار المصير من أجل إشباع فضولنا، بل من أجل أن يغيّر طريقنا قبل الوصول إليه.

وهنا يظهر التوازن القرآني: الوعيد ليس غاية في ذاته، بل وسيلة إنقاذ.

فالذي يقول لك إن أمامك ناراً لا يريد أن يحرقك بالخبر.

يريد أن يمنعك من الوصول إليها.

الآية السابعة والعشرون: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾

حين تعجز المعرفة البشرية عن الإحاطة

هذه من الصيغ القرآنية التي توقظ القلب من اعتياد الكلمات.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ﴾.

كأن الاسم ذكر، ثم قيل لك: لا تظن أنك حين عرفت الاسم فقد عرفت الحقيقة.
هناك أشياء أكبر من اللغة.

وأكبر من الخيال.

وأكبر من قدرة العقل على رسمها.

فالإنسان يتعامل غالباً مع ما يعرفه عن طريق المقارنة: نار الدنيا، ألم الدنيا، خوف الدنيا؛
لكن الآخرة ليست مجرد تضخيم لما نعرف.

إنها عالم آخر.

ومن هنا تأتي الهيبة.

قد تعرف كلمة «الموت»، لكنك لا تعرفه كما يعرفه من دخل لحظته.

وقد تعرف كلمة «القيامة»، لكنك لا تعرفها كما سيعرفها من وقف فيها.

وقد تقرأ كلمة «سقر»، لكن الحقيقة أكبر من اللفظ الذي يصل إليك.

وهذا يربي في الإنسان تواضعاً معرفياً نادراً.

ليس كل ما وصفه الله صار تحت سيطرة خيالك.

والمؤمن لا يشترط أن يحيط بالشيء حتى يخشاه أو يصدقه.

يكفيه أن الذي أخبر عنه هو الله.

الآية الثامنة والعشرون: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾

العذاب الذي لا يترك للإنسان وهماً

تأتي العبارة قصيرة وقاطعة.

﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾.

كأن اللغة نفسها تقلل التفاصيل لتزيد الرهبة.

لا تبقي.

ولا تذر.

إنها شمولية العذاب وقسوته.

لكن وراء الصورة معنى تربوياً شديد الأثر: الذنب الذي يظنه الإنسان صغيراً لأنه وقع في لحظة قد يقوده، إذا أصر عليه واستكبر، إلى عاقبة لا تشبه لحظته الأولى.

ما أسرع المعصية.

وما أطول بعض آثارها.

الإنسان قد يرتكب القرار في دقائق.

ثم يقضي عمراً كاملاً في نتائج القرار.

فكيف إذا كانت النتيجة أخروية؟

وهذه إحدى أكبر خديع النفس: أنها تحسب الفعل بحجم زمنه.

تقول: لحظة شهوة.

لحظة غضب.

لحظة كذب.

لحظة عناد.

لكن القرآن يعلمك أن ميزان الفعل ليس الزمن الذي استغرقه.

بل ما ترتب عليه.

ولهذا فإن أخطر ما يفعله الإنسان بنفسه أن يحتقر بوابة صغيرة قد تقوده إلى طريق طويل.

الآية التاسعة والعشرون: ﴿لَوْ أَحَاطَ لِلْبَشَرِ﴾

حين يظهر أثر النار على ظاهر الإنسان

﴿لَوْ أَحَاطَ لِلْبَشَرِ﴾.

أي تغير البشرة وتلوح عليها بأثرها.

والمشهد شديد الحسية.

فالإنسان الذي اعتنى طويلاً بظاهره، وبصورته، وبما يراه الناس منه، يصل إلى موضع لا

يستطيع فيه أن يحمي جلده من أثر المصير.

وكم في هذا من انقلاب للموازن.

في الدنيا يملك الإنسان وقتاً هائلاً لتحسين الصورة.

أما في الآخرة فلا تنفع الصورة إذا فسد الأصل.

وهنا تخرج الآية من حدود الوصف إلى معنى أوسع في التأمل: ما تخفيه النفس طويلاً يظهر يوماً.

قد تخفي الكبر.

قد تخفي الحقد.

قد تخفي الكذب.

وقد تحسن تغليف الداخل.

لكن القرآن يعلمنا أن الحقيقة لا تبقى مستترة إلى الأبد.

وهذا لا يعني تحميل الآية ما لا تحتل في التفسير، لكنه يفتح باباً معتبراً في التأمل: كما تلوح النار على البشرية، فإن الأعمال أيضاً تترك آثارها على الإنسان.

الطاعة تصنع ملاحم داخلية.

والمعصية تصنع ملاحم داخلية.

وقد لا يراها الناس كلها.

لكن صاحب القلب يشعر بها.

الآية الثلاثون: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾

حين يتحول العدد إلى امتحان

جاء العدد مجرداً.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾.

وكانت هذه الآية موضع فتنة للكافرين، كما ستشرح الآية التالية.

وهنا تتجلى طريقة القرآن في اختبار القلوب.

فالإنسان السليم يتلقى خبر الله من موقع العبودية.

أما المعاند فيبحث في كل تفصيل عن منفذ للسخرية.

المشكلة ليست في العدد.

المشكلة في القلب الذي يستقبل العدد.

وهذا فارق عظيم.

فالمعلومة نفسها قد تزيد مؤمناً إيماناً، وتزيد معانداً بعداً.

وقد يسمع شخصان الآية نفسها.

فيخشع أحدهما.

ويستهزئ الآخر.

الآية لم تتغير.

لكن المستقبل تغير.

ولهذا فإن سؤال الهداية لا يبدأ فقط من: ماذا قيل لك؟

بل أيضاً: بأي قلب سمعت؟

الآية الحادية والثلاثون:

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً...﴾

النص الواحد والقلوب المختلفة

هذه الآية من أطول آيات السورة، ومن أعمقها في كشف أثر الوحي على أصناف الناس.

يبدأ البيان بتصحيح الوهم: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾.

نفزنة النار ليسوا بشراً يمكن التغلب عليهم، ولا مخلوقات داخلة في مقاييس القوة البشرية المعتادة.

ثم يأتي التعليل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدَّتَهُمُ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

والفتنة هنا اختبار وكشف.

فالعدد نفسه أصبح أداة تظهر ما في القلوب.

ثم ترى أربعة آثار مختلفة للنص نفسه.

﴿لَيْسَتِ الْيَقِينُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾.

أي إن موافقة ما عندهم من العلم تزيدهم يقيناً بما جاء به القرآن.

﴿وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾.

وهذه عبارة عظيمة في طبيعة الإيمان.

الإيمان ليس كلمة جامدة.

يزداد.

يتقوى.

يتراكم فيه اليقين.

كلما صدق العبد مع الله، صار الوحي يفتح له أبواباً جديدة من الطمأنينة.

ثم يقول: ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

فتأتي المعرفة الصحيحة لتسد منافذ الشك.

لكن المشهد لا ينتهي هنا.

فالنص نفسه الذي يطمئن المؤمنين يثير سؤال المرضى:

﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾.

وهنا نصل إلى إحدى أعظم قواعد التعامل مع الوحي:

ليس كل سؤال علامة بحث عن الحقيقة.

قد يكون السؤال باباً للعلم.

وقد يكون ستاراً للاعتراض.

قد يقول الإنسان: ماذا أراد الله؟ لأنه يريد أن يفهم.

وقد يقولها لأنه قرر مسبقاً أن في النص إشكالاً.

وهذا يفسر لماذا لا تؤدي زيادة الشرح دائماً إلى زيادة الهداية.

فالمشكلة أحياناً ليست نقص المعلومات.

بل مرض القلب.

إن النص الإلهي لا يكشف المعنى فقط.

يكشف القارئ أيضاً.

تقرأ القرآن فتظن أنك تنظر إليه.

لكن في مواضع كثيرة يبدو كأنه ينظر إليك.

يكشف نيتك.

تواضعك.

استعدادك.

اعتراضك.

ومدى صدقك في طلب الحق.

ثم يأتي التقرير المهيب:

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

والهداية والضلال بيد الله، يجريان بحكمته وعدله، فلا يستقل الإنسان عن مشيئته، ولا يخرج عن سلطانه.

وهذا المعنى يعيد القلب إلى موضعه الحقيقي: مهما تعلت، ومهما قرأت، فلا تستغن عن سؤال الله الهداية.

فكم من ذكي ضل.

وكم من عالم زل.

وكم من قلب بسيط هداه الله فصار بنوره أبصر من عقول ضخمة حجبها أهواؤها.

ثم تأتي العبارة التي تهدم سخریات من استكثروا العدد:

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

تسعة عشر ليسوا نهاية القوة.

ولا بداية عدّ جنود الله.

إنهم جزء مما شاء الله أن يخبر به.

أما جنود الله فلا يحيط بهم أحد.

وهنا يعود التكبير من أول السورة في صورة أخرى.

هناك قال:

﴿وَرَبُّكَ فَكَبِّرْ﴾.

وهنا يقول:

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

فمن عرف عظمة الرب لم يستخف بجنده.

ومن عرف محدودية نفسه لم يجعل مقاييسه البشرية معياراً لقدرة الله.

كم هو مضحك أن يقف الإنسان الصغير داخل كون لا يعرف إلا جزءاً يسيراً منه، ثم يتحدث عن حدود قدرة الخالق كأنه أحاط بجنوده!

إن الجاهل حين يتزوج بالكبر ينتج سخرية.

أما العلم حين يقترن بالتواضع فينتج خشية.

ثم تحتم الآية:

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾.

يا للمفارقة.

بعد سقر.

وبعد الملائكة.

وبعد العدد.

وبعد الفتنة.

وبعد الضلال والهداية.

يقال لك إن الغاية: ذكرى.

أي إن المقصود ليس أن تخرج من الآيات مجملًا بالمعلومات عن النار فقط.

بل أن نتذكر.

أن تستيقظ.

أن تعود.

أن تغير طريقك.

فالقرآن لا يريد أن يصنع خبيراً في أوصاف جهنم وهو يمشي إليها.

إنما يريد إنساناً يسمع الوصف فينجو.

خاتمة الفصل

حين لا يكون الامتحان في المعلومة بل في القلب

بدأ الفصل بقوله:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾.

ثم أخذت السورة تصف النار.

لكن المفاجأة أن الحديث عن النار تحول سريعاً إلى حديث عن القلوب.

عدد الملائكة صار فتنة.

أهل الكآب ازدادوا يقيناً.

المؤمنون ازدادوا إيماناً.

المرضى في قلوبهم ازدادوا سؤالاً واعتراضاً.

والكافرون وجدوا في التفصيل مادةً للجدل.

وهكذا تكتشف أن الامتحان الحقيقي لا يقع يوم القيامة فقط.

إنه يقع الآن، وأنت تسمع خبر القيامة.

كيف تستقبل الوحي؟

هل يزيدك خشية؟

أم يزيدك جدلاً؟

هل تسأل لتفهم؟

أم تسأل لتخلص من سلطان النص؟

هل ترى في الخبر طريقاً للهداية؟

أم مادةً لاختبار قدرتك على الاعتراض؟

إن سورة المدثر تكشف هنا حقيقة دقيقة: القرآن لا يمر على القلوب مروراً محايداً.

إنه يفرز.

يكشف.

ويزيد كل قلب في الطريق الذي اختاره، إلا من تداركته رحمة الله فعاد.

والآية الأخيرة من هذا المقطع تعيدنا إلى مقصد السورة كله:

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾.

فانلحوف في القرآن ليس غاية.

والنار ليست قصة.

والوعيد ليس استعراضاً للرعب.

إنه جرس إنذار.

وما دام الجرس يُسمع، فما زال في الطريق متسع للنجاة.

الفصل الخامس

القمر والليل والصبح: الكون شاهداً على الإنذار

من رهبة سقر إلى آيات الكون، ومن مشهد الإنذار إلى مسؤولية الاختيار

الآيات 32-37

﴿كَأَلَّا وَالْقَمَرَ﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكُبَرِ ﴿نَذِيرًا
لِّلْبَشَرِ﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿

الآية الثانية والثلاثون: ﴿كَأَلَّا وَالْقَمَرَ﴾

حين تستدعي السورة شاهداً من السماء

بعد الحديث عن سقر، وعن خزنتها، وعن القلوب التي تثلقى الخبر فتزداد به إيماناً أو مرضاً،
يأتي التحول فجأة إلى السماء: ﴿كَأَلَّا وَالْقَمَرَ﴾. وكأن السورة تخرج العين من ضيق الجدل
البشري إلى سعة الكون، ومن إنسان يحاول أن يزن الوحي بمقاييسه الصغيرة إلى آية معلقة
فوق الجميع لا يملك أحد أن يغير نظامها.

القسم بالقمر يرد القلب إلى حقيقة أولية: هذا الوجود ليس فوضى. القمر الذي تراه الليلة
ليس حادثاً بلا تدبير، ولا جرمًا ضالاً في فراغ بلا سلطان؛ إنه مخلوق يجري في نظام قدره
الله، ويظهر ويغيب في أوقات لا تستأذن أهواء البشر.

والقرآن حين يقسم بمخلوق من مخلوقات الله لا يرفعه إلى مقام العبادة، تعالى الله عن ذلك،
وإنما يلفت النظر إلى ما فيه من الدلالة. فالعين قد تعتاد القمر حتى تنسى عجبه، كما يعتاد
الإنسان النعمة حتى ينسى المنعم. ويأتي الوحي ليعيد الدهشة إلى ما قتلته الألفة.

وفي باب التأمل، يبدو القمر هنا شاهداً هادئاً على الفرق بين الكون والإنسان: الكون لا
يفاوض أمر الله، أما الإنسان فقد أوتي إرادة يطيع بها أو يعصي. القمر لا يخرج من فلكه

احتجاجاً، والليل لا يرفض أن يدير، والصبح لا يمتنع أن يسفر، وحده الإنسان يستطيع أن يعرف ثم يعاند.

وهذا يجعل الحرية تكليفاً لا امتيازاً مجرداً. أن تكون قادراً على أن تقول نعم أو لا يعني أنك ستقف يوماً أمام ما اخترت. فالكون من حولك يعبد الله بطريقته التي فطره عليها، وأنت مدعو أن تدخل هذا الانسجام بإرادة واعية.

كم مرة رفع الإنسان رأسه إلى القمر وهو مثقل بهم صغير ظنه نهاية العالم؟ القمر لا يحل لهم، لكنه يعيد حجمه. يذكرك أن فوق دوائرك الضيقة كوناً أوسع، وأن رب القضية التي أقلقتك هو رب هذا الجرم المضيء، وأن ما استعصى عليك لم يخرج لحظة عن ملكه.

وليس المقصود أن نهرب إلى جمال القمر من رهبة سقر؛ بل أن نفهم أن الذي أخبر بسقر هو نفسه رب القمر. الجمال والوعيد صادران عن رب واحد، والحكمة التي ربت منازل النور في السماء هي التي ربت للإنسان طريق النجاة وطريق الهلاك.

الآية الثالثة والثلاثون: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾

الظلمة التي تمضي ولا تملك البقاء

ثم يقسم الله بالليل في لحظة إدباره. ليست الصورة لليل وهو يقبل ويغطي الأشياء، بل له وهو ينصرف. وكلمة ﴿أَدْبَرَ﴾ تمنح المشهد حركة: ظلمة كانت تملأ الأفق، ثم أخذت تسحب ستائر خطوة بعد خطوة.

في ظاهر الآية مشهد كوني معلوم، وفيه من الدلالة ما يكفي لإيقاظ القلب: الليل، مهما امتد، لا يملك أن يعلن نفسه أبدياً. له أجل في كل دورة، وحدود لا يتجاوزها، وساعة يتراجع فيها أمام أمر الله.

وهنا، في باب التأمل، تتسع الصورة دون أن نفصلها عن سياقها: كم من ليل مر على الإنسان فظنه لا ينتهي. ليل خوف، أو محنة، أو حيرة، أو وحدة. ليست الآية وعداً بأن كل شدة دنيوية ستزول بالطريقة التي نريدها، لكنها تربّي في القلب رفض تأليه اللحظة، فما من حال في الدنيا يملك صفة الأبد.

والليل حين يدبر يعلم النفس أن الزمن نفسه جندي من جنود الله. ما يثقل عليك اليوم يتحرك، وما تراه ثابتاً يجري إلى نهايته، وأنت أيضاً تتحرك معه نحو لقاء لا يتوقف لأنك انشغلت عنه.

وفي سياق الإنذار يصبح إدبار الليل أكثر رهبة؛ لأن الظلمة التي تسمح للإنسان أن يختبئ من أعين الناس ليست ستاراً على علم الله. قد تستر الليل الأجساد، لكنه لا يستر الأعمال عن كآبها، ولا النيات عن عالم السرائر.

الإنسان يحب أحياناً أن يفعل بعض الأشياء في مناطق العتمة: حيث يقل الشهود، ويضعف الحرج، وتغيب الرقابة البشرية. لكن سورة المدثر تضع بعد سقر ليلاً يدبر، كأنها تذكر أن كل ستار زمني سيرتفع، وأن ما عاش في الخفاء له صباح يقف فيه أمام الحقيقة.

ولا يحتاج المؤمن أن يكره الليل حتى يفهم هذا. فالليل رحمة وسكن وستر، لكنه عبد الله لا ملجأ من الله. وإذا عرف القلب ذلك، لم يحول الظرف إلى إله، ولا الخفاء إلى أمان كاذب، ولا طول الانتظار إلى حجة لليأس.

الآية الرابعة والثلاثون: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ﴾

حين يكشف النور وجه الأشياء

ثم يأتي الصبح: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ﴾. والإسفار ظهور الضوء وانكشافه، حتى كأن للصبح وجهاً يرفع عنه النقاب. وبعد إدبار الليل لا يترك القرآن في فراغ، بل يريك النور وهو يتقدم.

إنها حركة متتابعة بدقة: قمر، ثم ليل يدبر، ثم صبح يسفر. الكون كله في انتقال، والإنسان الذي يتوهم أنه يستطيع تثبيت حياته عند لحظة واحدة يعيش ضد قانون المشهد. كل شيء يمضي، والوقت الذي بين يديك لا يقيم.

ويمكن للتأمل أن يلحظ مقابلة جمالية في السورة: وجه المعاند قبل قليل ﴿عَبَسَ وَوَسَّرَ﴾، ووجه الصبح هنا يسفر. هناك وجه أظلم حين قاوم الحق، وهنا أفق يضيء حين يجري على أمر الله. ليست هذه مقابلة تفسيرية لازمة، لكنها لحظة تزيد المشهد حياة في القلب.

الصبح لا يجادل الليل حتى ينتصر عليه. لا يرفع صوته، ولا يدخل معه في مناظرة. يظهر فقط، وحين يظهر تنسحب الظلمة. وفي ذلك درس رفيع لمن يحمل حقاً: ليست قوة الحق دائماً في كثرة الضجيج، بل في أن يبقى نوراً واضحاً لا يساوم على حقيقته.

وكما يكشف الصبح معالم الأرض، فإن الوحي يكشف معالم الطريق. قبل النور قد تبدو الحفرة طريقاً، ويبدو السراب ماء، وتختلط الجهات؛ فإذا أشرق البيان ظهرت الأشياء بأسمائها. ومن هنا كان العناد بعد البيان أشد من الجهل قبله.

إن أكثر ما يخشاه الباطل ليس أن يعلو صوت آخر فحسب، بل أن يطلع الصبح. أن ترى الأشياء كما هي. أن تسقط الزينة عن القبيح، وأن يسقط التشويه عن الجميل، وأن يقف الإنسان أمام نفسه بلا رواية تجميلية.

ولهذا فإن الصبح في هذا السياق لا يفتح باب التفاؤل الساذج، وإنما باب اليقظة. فالنور جميل، لكنه كاشف. وقد يكون الكشف رحمة لمن يريد أن يصلح، وحنة على من أصر أن يغمض عينيه.

ما دمت في الدنيا فما زال بإمكانك أن تستقبل الصبح باعتباره فرصة. أن ترى. أن تعيد تسمية الأشياء. أن تعترف بأن طريقاً طال سيرك فيه كان خطأ. أما حين يطلع صبح الآخرة، فلن يكون زمناً لصناعة عمل جديد، بل لانكشاف ما صنع.

الآية الخامسة والثلاثون: ﴿إِنَّهَا لِإِحْدَى الْكُبَرِ﴾

حين يسقط وهم الاستهانة

بعد الأقسام الكونية يأتي الجواب المزلزل: ﴿إِنَّهَا لِإِحْدَى الْكُبَرِ﴾. والضمير في سياق الآيات عائد إلى سقر وما تقدم من شأنها؛ فهي واحدة من الأمور العظام التي لا يصح للعقل أن يستقبلها ببرود أو سخرية.

الإنسان يملك قدرة عجيبة على تصغير ما لا يريد مواجهته. يسمي الخطر مبالغة، والإنذار تهويلاً، والذنب هفوة، والمصير قضية بعيدة. ليست الكلمات بريئة دائماً؛ فقد تكون وسيلة لتقليل حجم الحقيقة حتى يستطيع أن يستمر كما هو.

فتأتي الآية لتعيد الحجم الحقيقي: ﴿لَا حُدَىٰ الْكِبَرِ﴾. ليست هامشاً في الوجود، ولا تفصيلاً صغيراً يمكن أن يؤجل إلى فراغ آخر العمر. إنها من الحقائق الكبرى التي ينبغي أن تعيد ترتيب ما دونها.

وكم يحتاج الإنسان إلى أن يسأل نفسه عن سلم "الكبر" في داخله. ما الذي يراه كبيراً حقاً؟ خسارة مال؟ سقوط صورة اجتماعية؟ نقد إنسان؟ تأخر مشروع؟ هذه أمور قد تكون مؤلمة ولا ينبغي الاستهانة بألمها، لكن القرآن يعلم القلب أن هناك مقاييس أعلى من مقاييس اللحظة.

المشكلة ليست أن نهتم بالدنيا، فقد أمرنا بالعمل فيها وإقامة الحق، وإنما أن تصبح أحداثها العاجلة أكبر في القلب من المصير الأبدى. حينئذ نخاف أن نخسر صفقة أكثر مما نخاف أن نخسر أنفسنا، ونحرس صورتنا أمام الناس أكثر مما نحرس حقيقتنا أمام الله.

والتعبير لا يقول إنها "الكبرى" الوحيدة، بل ﴿لَا حُدَىٰ الْكِبَرِ﴾، وفي ذلك إبقاء للقلب في أفق الآخرة الواسع؛ فهناك حقائق عظيمة لا تستطيع الدنيا أن تستوعب وزنها الكامل.

من هنا يصبح الإيمان إعادة ترتيب للأحجام. لا يزيل آلام الحياة، لكنه يمنعها من ابتلاع الأفق. ولا يحقر ما تمر به، لكنه يقول لك: لا تجعل ما يزول أكبر مما لا يزول.

وحين يستقر هذا الميزان، يتغير القرار. أشياء كنت تراها مستحيلة في سبيل الحق تصبح محتملة، وأشياء كنت تراها صغيرة من المعاصي تكبر في عينك؛ لأن معيارك لم يعد مقدار لذتها أو ألمها العاجل، بل موقعها من الله ومن المصير.

الآية السادسة والثلاثون: ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾

الإنذار الذي لا تحصره قبيلة ولا زمان

ثم تختصر السورة وظيفة هذا المشهد كله في كلمتين: ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾. بعد أن بدأت القصة بإنسان معين عاند، يتسع الخطاب حتى يشمل البشر. فالمشكلة ليست سيرة رجل مضى، والإنذار ليس رسالة مغلقة في زمن مكة الأول.

إنه للبشر. للغني والفقير. للقوي والضعيف. للعالم والجاهل. لمن يظن أن مكائنه تحميه، ولمن يظن أن ضعفه يعفيه. أمام المصير تسقط الامتيازات التي صنعتها المجتمعات، ويبقى الإنسان عبداً مكلفاً يسمع ويختار.

وفي هذا من عدل القرآن ما يملأ القلب هيبة: لا توجد طبقة بشرية فوق التذكرة. كلما ارتفع الإنسان في دنيا الناس ازداد حاجته إلى أن يسمع ما يردّه إلى حجمه. فالسلطة لا تلغي الموت، والثروة لا تلغي الحساب، والثقافة لا تمنح عصمة من الهوى.

والإنذار في القرآن ليس شغفاً بإخافة الإنسان. لقد رأينا في السورة نفسها أن نهايتها ستكون عند المغفرة. الإنذار رحمة من نوع لا تجيد النفس طلبها؛ لأن الإنسان قد يحب من يطمئنه وهو يمشي إلى الخطر، بينما يحسن إليه من يزعج راحته لينعه من السقوط.

الطبيب الذي يخبرك بجديّة المرض لا يكرهك. والمصباح الذي يكشف الحفرة لا يسيء إلى الطريق. وكذلك الوحي: يرفع صوت الخطر لأن صمت الإنذار في موضع الهلاك ليس رحمة. ولهذا لا يصح أن تتحول آيات الوعيد في خطاب المؤمن إلى أداة تشفيّ بالناس. من فهم معنى ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ حمل الإنذار بقلب خائف على البشر لا متلذذ بمصائبهم. ينصح لأنه يريد النجاة لنفسه ولغيره، لا لأنه يريد أن يشعر بالتفوق الأخلاقي عليهم.

والداعية نفسه داخل كلمة البشر. ليس حامل الإنذار خارج الحساب، ولا قارئ السورة في مقعد المشاهد. كل آية تقرؤها عن سقر تسألك أنت أيضاً: ماذا ستصنع بهذا العلم؟ وهل زادك خوفاً من الله، أم زادك قدرة على الحديث عن خوف الآخرين؟

إن أصدق إنذار هو الذي يمر أولاً على قلب صاحبه. فإذا رُقّ به، صار كلامه أرحم وأصدق. وإذا نجا من قسوة الاستعلاء، استطاع أن يقول الحقيقة كاملة دون أن يفقد إنسانيته.

الآية السابعة والثلاثون: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾

لا حياد في طريق المصير

وهنا، بعد القمر والليل والصبح، وبعد الحديث عن إحدى الكبر والإنذار للبشر، يصل الخطاب إلى الإنسان مباشرة: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾.

إنها آية مسؤولية. هناك مشيئة للإنسان في مجال التكليف، وهناك اتجاهان أخلاقيان: تقدم وتأخر. لا يقدم القرآن الحياة بوصفها مساحة ساكنة تستطيع أن تقيم فيها بلا حركة. حتى الامتناع عن القرار قرار، وحتى تأجيل التوبة لون من ألوان التأخر.

والتقدم هنا ليس نجاحاً دنيوياً بالمعنى الشائع، ولا التأخر فشلاً في المال أو المكانة. الميزان في سياق السورة هو القرب من طاعة الله والاستجابة لإنذاره، أو الابتعاد عن ذلك. قد يتقدم إنسان عند الله وهو يتراجع في مقاييس السوق، وقد يتأخر عند الله وهو يصعد في عيون الناس.

ومن أجل ما في موضع الآية أنها تأتي بعد كون كله يتحرك: القمر في منازل، والليل يدبر، والصبح يسفر. ثم يلتفت إليك السؤال الصامت: وأنت، إلى أين تتحرك؟

الزمن لا ينتظر إجابتك. كل يوم يمر يقتطع جزءاً من العمر، ويضيف سطرًا إلى الكسب. ولذلك فإن وهم الوقوف في المنتصف من أخطر أوهام النفس. لا يوجد عمر محفوظ في المخزن حتى تقرر استعماله لاحقاً.

قد يقول الإنسان: أنا لا أريد أن أكون سيئاً، لكنني لست مستعداً بعد أن أكون أفضل. غير أن الأيام لا تعرف هذه المنطقة الرمادية كما تتخيلها النفس. ما دام الخير الذي عرفته مؤجلاً، فالتأجيل نفسه يصنع فيك عادة، والعادة تصنع اتجاهًا.

وهنا تعود كلمة السورة الأولى من بعيد: ﴿قُمْ﴾. في البداية كان المطلوب أن تنهض من الدثار، وهنا يظهر أن القيام ليس حركة واحدة حدثت ثم انتهت؛ إنه اتجاه مستمر: تقدم أو تأخر. كل طاعة خطوة، وكل توبة خطوة، وكل انتصار على هوى خطوة.

وفي المقابل، التأخر لا يبدأ دائماً بسقوط مدوّ. قد يبدأ بتنازل صغير يعتاده القلب، ثم تنازل آخر، ثم يصبح ما كان يؤلمه بالألمس عادياً اليوم. ولهذا كان حفظ الحساسية الإيمانية من أعظم صور التقدم.

ومع إثبات مسؤولية الإنسان هنا، ستأتي خاتمة السورة لتمنع غرور الاستقلال: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾. لك مشيئة حقيقية في التكليف، لكنها ليست خارجة عن سلطان الله. تعمل، وتختار، وتجاهد، ثم تفتقر إليه في أصل الهداية وثباتها.

وهكذا يمهد هذا الإعلان مباشرة لما بعده: إذا كان هناك تقدم وتأخر، فالبد أن تكون هناك تبعه للكسب. ولهذا يأتي الفصل التالي بقوله المزلزل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾. الاختيار يتحول إلى كسب، والكسب يتحول إلى مصير.

خاتمة الفصل

بين إدبار الليل وإسفار الصبح

هذا المقطع القصير من سورة المدثر يبدو في ظاهره استراحة كونية بين مشهد سقر ومشهد المسؤولية، لكنه في الحقيقة جسر محكم بينهما. فالقرآن لم يخرج من النار إلى القمر والليل والصبح ليبدل الموضوع، بل ليجعل الكون نفسه شاهداً على جدية الإنذار. القمر حاضر في نظامه. والليل يتحرك إلى إدباره. والصبح يتحرك إلى إسفاره. ثم تقف أنت، الإنسان، في قلب هذا الوجود المتحرك، وقد منحت قدرة أن تتقدم أو تتأخر.

الكون لا يضيع طريقه الذي قدره الله له. أما مأساة الإنسان فتبدأ حين يملك البصيرة ثم يختار أن يعطّلها، أو يسمع الإنذار ثم يعامله كأنه صوت عابر.

ولهذا جاءت ﴿إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكُبَرِ﴾ لتصحح حجم الحقيقة، ثم ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ لتوسع دائرة الخطاب، ثم ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ لتضع القرار في يد السامع ضمن مشيئة الله وسلطانه.

ما أجمل ترتيب السورة: قبل أن تقول لك إن كل نفس رهينة بما كسبت، تقول لك إنك تتحرك باختيارك. فالجزاء ليس حدثاً غريباً يهبط على الإنسان من خارج سيرته؛ إنه نهاية طريق كان يتقدم فيه أو يتأخر خطوة بعد خطوة.

والليل الذي يدبر يهمس لك أن وقتاً مضى لن يعود. والصبح الذي يسفر يقول إن الكشف قادم. والقمر فوقهما شاهد على نظام لا يختل لأن إنساناً قرر أن يغفل عنه.

فلا تسأل فقط: هل أنا مؤمن؟ اسأل أيضاً: في أي اتجاه أتحرك اليوم؟ هل صرت أقرب إلى الصدق، أم أقدر على تبرير الكذب؟ أقرب إلى الصلاة، أم أكثر اعتياداً على الغياب عنها؟ أرحم بالمسكين، أم أصلب قلباً أمام حاجته؟ أكثر استقلالاً عن الخوض، أم أسرع ذوباناً في ضجيج الجماعة؟

هذه الأسئلة هي الطريق إلى الآلة التالية.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾.

فبعد أن رأينا حركة الكون، حان أن نرى حصيلة حركة الإنسان.

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ

حين تنكشف سيرة الإنسان من الصلاة إلى المسكين، ومن الخوض إلى اليقين

الآيات 38-48

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۖ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۖ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۖ عَنْ الْمُجْرِمِينَ ۖ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۖ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۖ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمُسْكِينَ ۖ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۖ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ۖ حَتَّىٰ أَتَانَا الْبَقِيَّةُ ۖ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾

الآية الثامنة والثلاثون: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾

حين يصبح العمل قيداً أو مفتاحاً

من أهيب كلمات المسؤولية في القرآن هذه الكلمة: ﴿رَهِينَةٌ﴾.

فالإنسان لا يمر في الحياة مروراً خفيفاً كما يتوهم، ولا يترك أفعاله خلفه ثم يمضي. ما يفعله يصحبه، وما يكسبه يتصل بمصيره، حتى تصبح النفس مرهونةً بكسبها، مرتبطةً بما قدّمت.

والآية لا تقول: كل نفس بما قال الناس عنها رهينة.

ولا بما ادّعت لنفسها.

ولا بما انتسبت إليه.

ولا بما كان عليه آباؤها.

إنما: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾.

وهذه عبارة تهدم كثيراً من الملاجئ الوهمية التي يصنعها الإنسان حول ذاته.

لا تنفك صورة التقوى إذا كان العمل يخالفها.

ولا يكفي أن تنتمي إلى بيئة صالحة إذا لم يصلح قلبك وعملك.

ولا تنجيك سمعة بناها الآخرون لك إن كنت تعرف من نفسك ما لا يعرفون.

فالآخرة عالم تسقط فيه المسافات بين الحقيقة والصورة.

وما أعدل كلمة ﴿كُلُّ﴾.

لا استثناء بسبب الوجاهة.

ولا بسبب النسب.

ولا بسبب كثرة المادحين.

الإنسان هناك فرد أمام كسبه.

وهذه الفردية ليست عزلةً عن فضل الله ورحمته، لكنها تقرير قاطع لمسؤولية العمل؛ فلا

يحمل أحد عن أحد جرمه، ولا يستطيع الإنسان أن يعيش عمره متكئاً على استقامة غيره.

وفي معنى ﴿كسبت﴾ دلالة بالغة؛ فالأفعال كأنها مكتسبات تضاف إلى الإنسان. أنت لا تفعل الفعل فقط، بل الفعل نفسه يفعل فيك شيئاً.

تكرر الصدق، فيصنع فيك صادقاً.

وتكرر الخيانة، فتتشكل فيك قابلية الخيانة.

وتستمر في الصلاة، فيتربى فيك قلب يعرف موضعه.

وتهجرها طويلاً، فيعتاد القلب الاستقلال الوهمي عن ربه.

فنحن لا نجعل الأعمال كما تجمع الأرقام في صحيفة فحسب؛ بل الأعمال تبني أصحابها.

وهكذا يصبح العمر ورشة خفية لتكوين النفس التي سنلقى الله بها.

الآية التاسعة والثلاثون: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾

حين تفك الرحمة الرهن

بعد ذلك الحكم الثقيل يأتي الاستثناء:

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾.

في لحظة واحدة ينفتح أفق آخر.

ليس كل رهن أبدياً.

وليس الإنسان محكوماً بالهلاك لمجرد أنه يعيش تحت تبعة العمل.

هناك أصحاب يمين، أهل نجاة وكرامة، نجاهم الله برحمته وما وفقهم إليه من إيمان وعمل صالح.

وفي ورود الاستثناء بعد كلمة ﴿رَهِيْنَةٌ﴾ شيء يملأ القلب رجاءً؛ لأن القرآن، حتى وهو يقرر المسؤولية، لا يغلق أبواب النجاة.

إن الإسلام لا يصنع إنساناً مستهتراً بحجة الرحمة، ولا يريده يائساً بحجة الحساب.

بين الخوف والرجاء يتربى القلب.

يعمل كأن العمل شديد الأهمية.

ويرجو كأن الرحمة هي التي ستبلغه الغاية.

وهذا التوازن من أدق أسرار العبودية.

الآية الأربعون: ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾

عندما يتحول الخوف القديم إلى أمان

الآن نقلنا القرآن إلى مكان مختلف تماماً.

من سقر إلى الجنات.

ومن الرهن إلى الحرية.

ومن الخوف إلى سؤال أهل النجاة.

﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾.

لاحظ أن الشهيد لا يقول فقط إنهم نجوا، بل يصور مقامهم.

في جنات.

أي إن الأسئلة التي كانوا ربما يحملونها في الدنيا صاروا يطرحونها من موقع الأمان.

وهذه واحدة من أجمل مفارقات الآخرة: أشياء كثيرة تخيفك الآن ستنظر إليها يوماً من مكان آخر تماماً إذا رحمك الله.

كم من مؤمن عاش يخشى سقر، ثم يكون ممن يسألون عنها وهم في الجنة.

وكم من خوف في سبيل الله يتقلب أماناً عند الله.

فالحشية الصادقة ليست عذاباً دائماً.

إنها طريق إلى الأمن.

الآية الحادية والأربعون: ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾

المصير الذي صار سؤالا

يتساءلون عن المجرمين.

وهنا تبدو المسافة النهائية بين الفريقين.

كانوا يوماً يعيشون في أرض واحدة.

يرون شمساً واحدة.

ويمر عليهم ليل واحد.

وربما جلس المؤمن والمجرم في مجلس واحد، وتعاملوا في سوق واحد، وتجاوزوا في طريق واحد.

ثم فرقت بينهم القرارات التي لم يكن الناس يرون آثارها النهائية.

الآخرة تكشف أن التشابه الظاهري في الدنيا لا يعني تشابه المصير.

قد يتجاوز جسدان ويكون بين القلبين من المسافة ما يظهر يوم القيامة عالمين كاملين.

وهذا يعيد تعريف القرب والبعد.

ليس أقرب الناس إليك من جلس بجوارك.

قد يكون الأقرب حقيقةً من سار معك نحو الله.

الآية الثانية والأربعون: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾

السؤال الذي يختصر حياة كاملة

ما الذي أدخلكم سقر؟

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾.

والسلوك في الشيء هو الدخول فيه والمضي في طريقه.

والتعبير يوحي بأن سقر لم تكن نجاةً منفصلةً تماماً عما سبق؛ كان هناك مسار.

خطوات.

مواقف.

اعتيادات.

اختيارات متكررة.

حتى وصل الطريق إلى نهايته.

وهذا من أعظم دروس الآية: المصائر الكبرى كثيراً ما تبني من أفعال صغيرة تتكرر.

لا يصبح القلب قاسياً في يوم واحد.

ولا يهجر الإنسان الصلاة عادةً من أول مرة.

ولا يتحول الخوض مع الخائضين إلى طبع بلا مقدمات.

إن الانحراف يبدأ أحياناً بتساهل صغير ثم يطلب تساهلاً آخر حتى يصنع طريقاً كاملاً.

ولذلك كان السؤال: ما سلككم؟

كأن الإنسان كان يسير.

والآن فقط يرى إلى أين كان الطريق يؤدي.

الآية الثالثة والأربعون: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾

أول الانهيارات: انقطاع الصلة بالله

أول ما ذكره: الصلاة.

﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾.

وليس هذا أمراً عارضاً في ترتيب الجواب.

فالصلاة هي الموعد المتكرر الذي يعيد الإنسان إلى حقيقته.

يقف.

يكبر.

يركع.

يسجد.

ويعلم بجسده كله أن له رباً فوقه.

ولهذا فإن الصلاة ليست مجرد عمل بين أعمال الدين؛ إنها إعادة مستمرة لضبط مركز القلب.

كل يوم يحاول العالم أن يقول لك: المال أكبر.

الناس أكبر.

المصلحة أكبر.

الخوف أكبر.

فتدخل الصلاة وتقول:

الله أكبر.

ومن هنا نفهم لماذا يكون الانقطاع عنها أخطر من فقدان عادة.

إنه فقدان موعد متكرر لإعادة ترتيب الروح.

فالإنسان يحتاج إلى الصلاة لا لأن الله يحتاج عبادته؛ تعالى الله عن ذلك، بل لأن الإنسان نفسه ينسى سريعاً.

ينسى حجمه.

ينسى موته.

ينسى نعمته.

ينسى غايته.

فتأتي الصلاة خمس مرات كأنها إعادة الإنسان إلى مركزه قبل أن يضيع في الأطراف. ومثير للانتباه أنهم لم يقولوا: لم نصل أحياناً، بل: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾.

كأن الصلاة لم تكن جزءاً من هويتهم العملية أصلاً.

وهنا يظهر خطر أن يعيش الإنسان بلا محطة يرجع فيها إلى الله.

فالذي لا يسجد لله قد يسجد لأشياء كثيرة وهو لا يشعر.

لرأي الناس.

للمال.

للهوى.

للقوة.

لصورته أمام نفسه.

إن السجود لا يلغي كرامة الإنسان.

بل يحثه من أن يذل لما هو دون الله.

الآية الرابعة والأربعون: ﴿وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمُسْكِينِ﴾

من قطع صلته بالسماء قسا على جوع الأرض

بعد الصلاة مباشرة يأتي المسكين.

وهذا من أعظم الترتيب الأخلاقي في السورة.

علاقة بالله.

ثم علاقة بالاحتاج.

﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ ﴿وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمُسْكِينِ﴾.

وكان الدين يرفض أن يعيش الإنسان روحانيته في فراغ اجتماعي.

لا يكفي أن تقول إن قلبك مع الله بينما لا يرى قلبك جوع البشر.

فالذي علمك أن تقول «الله أكبر» علمك أيضاً أن تنظر إلى من لا يجد ما يطعم به نفسه.

إن المسكين في القرآن ليس تفصيلاً على هامش العقيدة.

إنه اختبار للعقيدة.

هل تحول الإيمان إلى رحمة؟

هل رأيت النعمة التي عندك أمانة، أم ملكية مغلقة؟

وهنا يظهر الوجه الاجتماعي للانحراف.

فالإنسان حين ينسى ربه قد يبدأ بالتعامل مع ما في يده كأنه له وحده استحقاقاً مطلقاً، ثم يغيب عنه الآخر.

والقرآن لا يقول: ولم تكن نشعر بالحزن على المسكين.

قال: ﴿نُطْعِمُ﴾.

فالمشاعر وحدها لا تشبع جائعاً.

يمكن أن تتأثر كثيراً، وتحدث بلاغة عن الفقر، ثم لا ينتقل شيء من يدك إلى يد محتاج. الدين يريد للرحمة أن تتجسد.

لقمة.

نفقة.

إعانة.

سترًا.

فليس كل خير فكرة.

بعض الخير خبز.

الآية الخامسة والأربعون: ﴿وَكَمَا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾

حين يتنازل الإنسان عن عقله للجماعة

هذه الآية من أكثر آيات السورة اتصالاً بحياة الإنسان اليومية.

﴿وَكَمْ نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾.

لم يقولوا فقط: كما نخطئ.

بل: كما ندخل في الخوض لأن الآخرين يخوضون.

وهنا تكشف السورة سلطان الجماعة على الإنسان.

كم من كلمة لم يكن سيقولها لو كان وحده.

قالها لأن المجلس قالها.

وكم من سخرية لم تكن في طبعه.

شارك فيها لأن الآخرين ضحكوا.

وكم من ظلم لم يبدأه.

لكنه دخل فيه لأنه صار حديث الجماعة.

الخوض يحمل صورة الدخول في كلام باطل بلا ثبت ولا ورع، والتورط فيه مع الآخرين.

وكم يحتاج الإنسان إلى أن يخاف من كلمة «مع».

فليست كل «مع» نجاة.

يمكن أن يكون الإنسان لطيفاً في نفسه، ثم يصبح داخل الجماعة شخصاً آخر.

توزع المسؤولية في شعوره، فيتوهم أن الخطأ صار أخف لأن الجميع يفعلوه.

لكن القيامة تعيد المسؤولية من الجمع إلى الفرد.

لن ينفع أن تقول: كانوا يقولون فقلت.

كانوا يسخرون فسخرت.

كانوا يتهمون فاتهمت.

كانوا يظلمون فصمتُ أو شاركت.

فالجماعة قد تفسر لك كيف وقعت.

لكنها لا تحمل عنك تبعة وقوعك.

وهذا واحد من أعظم دروس الاستقلال الأخلاقي في القرآن: لا تجعل كثرة الفاعلين دليلاً على صحة الفعل.

قد يمشي جمهور كامل في الاتجاه الخطأ.

والنجاة تحتاج أحياناً شجاعة أن تقف وحدك.

الآية السادسة والأربعون: ﴿وَكَمْ نَكُذِّبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾

حين يسقط الحساب من الوعي تُنغير الحياة كلها

هنا يصلون إلى أصل عميق من أصول الانحراف:

﴿وَكَمْ نَكُذِّبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾.

يوم الدين هو يوم الجزاء والحساب.

والتكذيب به ليس مجرد خلل في معلومة غيبية؛ إنه يغير هندسة السلوك كلها.

فإذا اقتنع الإنسان أن لا حساب نهائياً، أصبحت المعادلات الأخلاقية أكثر هشاشة.

لماذا أرفض ظلماً إذا ضمنت الإفلات؟

لماذا أحفظ الأمانة إن لم يرني أحد؟

لماذا أضحي بمصلحة عاجلة من أجل حق لا يعطيني أرباحاً مباشرة؟

الإيمان بالآخرة يمنح الأخلاق أفقاً يتجاوز اللحظة.

يجعلك تعرف أن الخسارة العاجلة قد تكون ربحاً نهائياً، وأن الربح العاجل قد يكون خسارة مؤجلة.

ولهذا كانت الآخرة في القرآن ليست موضوعاً للتخويف فحسب، بل أساساً لتحرير الإنسان من سطوة اللحظة.

من يعلم أن أمامه حساباً لا يحتاج أن ينتصر الآن في كل شيء..

يمكنه أن يتنازل عن حق صغير إذا كان العفو أرضى لله.

ويمكنه أن يترك مالاً حراماً رغم قدرته عليه.

ويمكنه أن يصبر على ظلم لا يستطيع دفعه دون أن يعتقد أن العدل ضاع.

فالآخرة تحفظ للكون معناه الأخلاقي.

وتقول للمظلوم: لن يضيع شيء.

وللظالم: لن يضيع شيء.

والعبارة نفسها رحمة لهذا ووعد لذلك.

الآية السابعة والأربعون: ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾

الموت الذي ينهي زمن المراجعة

اليقين هنا هو الموت في تفسير جمهور أهل العلم؛ لأنه الحقيقة التي إذا أتت انقطع مجال العمل وانتقل الإنسان إلى دار الجزاء.

﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾.

يا لمرارة كلمة ﴿حَتَّى﴾.

استمر الأمر.

استمر ترك الصلاة.

واستمر إهمال المسكين.

واستمر الخوض.

واستمر التكذيب.

حتى جاء الموت.

المشكلة لم تكن أن باب العودة كان مغلقاً.

المشكلة أنهم لم يدخلوه حتى أغلقه الموت.

وهذا هو الخطر الأعظم في التسويف.

الإنسان لا يقول غالباً: لن أتوب أبداً.

بل يقول: ليس الآن.

ولا يقول: سأهجر الصلاة إلى الموت.

بل يؤجل العودة.

ولا يقول: سأعيش قاسياً دائماً.

بل يقول: حين تتحسن ظروفي سأصبح أفضل.

لكن العمر لا يعقد مع الإنسان اتفاقاً على موعد النهاية.

والموت لا يرسل غالباً رسالة تقول: بقي أسبوع فرتب قلبك.

لهذا كان أخطر أعداء التوبة كلمة: غداً.

لأنها تمنح النفس راحة القرار دون تكلف العمل.

يشعر الإنسان أنه صالح النية لأنه ينوي التغيير لاحقاً، بينما واقعه لم يتغير.

حتى يأتي اليقين.

وعندها تتحول «سوف» كلها إلى «ليت».

الآية الثامنة والأربعون: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾

حين تنتهي كل محاولات الاحتماء بالآخرين

بعد اعترافهم يأتي الحكم:

﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾.

والشفاعة حق ثابت في نصوص الوحي لمن أذن الله للشافع أن يشفع فيه ورضي عنه، لكن هؤلاء بلغوا من الحال ما لا تتفهم معه شفاعة الشافعين.

وهنا تنهار آخر فكرة يمكن للإنسان أن يهرب إليها:

لعل أحداً ينقذني.

السورة بدأت بالمسؤولية الفردية:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾.

وتنتهي هذه المجموعة بنفي الانتفاع بالشفاعة عن هؤلاء.

كأن القوس اكتمل.

أنت مسؤول عن الطريق الذي اخترته.

فلا تبني حياتك على أمانتي النجاة التي لا يسندها إيمان وعمل.

وما أخطر الأمانتي الدينية حين تتحول إلى بديل عن التوبة.

قد يقول الإنسان: الله غفور، ثم يجعل المغفرة حجة للإصرار بدل أن تكون باباً للعودة.

وقد يتعلق بالصالحين، لكنه لا يسلك طريق الصلاح.

وقد يحب أهل الخير، ثم يظن أن المحبة وحدها تعفيه من مراجعة نفسه.

لكن القرآن يعيد الإنسان إلى نفسه.

ماذا كسبت؟

كيف صليت؟

كيف كان قلبك مع الضعيف؟

ما المجالس التي خضت فيها؟

كيف كان يقينك بالآخرة؟

هذه أسئلة لا يستطيع أحد أن يجيب عنها بدلاً منك.

خاتمة الفصل

أربعة اعترافات تختصر سقوط الإنسان

حين سئل المجرمون:

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾،

لم يقدموا خطاباً فلسفياً طويلاً.

ذكروا أربع قضايا:

لم نكون من المصلين.

ففسدت الصلة بالله.

ولم نكن نطعم المسكين.

ففسدت الصلة بالإنسان.

وكنا نخوض مع الخائضين.

ففسدت استقلالية الضمير أمام الجماعة.

وكنا نكذب بيوم الدين.

ففسدت رؤية المصير.

وإذا اختلت هذه الجهات الأربع كاد الإنسان يفقد خريطة كلهما.

فالصلاة تحفظ الاتجاه إلى فوق.

والرحمة بالمسكين تحفظ الاتجاه إلى الناس.

والتحرز من الخوض يحفظ استقلال الوعي.

واليقين بالآخرة يحفظ اتجاه الزمن.

إنها ليست أعمالاً متفرقة كما تبدو.

إنها هندسة الإنسان كله.

صلته بربه.

وصلته بغيره.

وصلته بالمجتمع.

وصلته بالمستقبل الأبدى.

وما أعجب أن السورة التي بدأت بـ:

﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾

تكشف هنا لماذا كان الإنذار ضرورياً.

لأن الإنسان يستطيع أن يتدرج في الغفلة حتى تصبح الغفلة حياةً كاملة.
يترك صلاة.

ويتجاوز مسكيناً.

ويجلس في مجلس خوض.

ويبعد الآخرة قليلاً عن تفكيره.

ثم تكرر الأشياء.

حتى تصبح الشخصية التي كانت مجرد احتمال في يوم من الأيام قدراً اختاره المرء لنفسه.
لكن الأشد رهبة أن هؤلاء لم يكونوا يجهلون النهاية إلى الأبد.
قالوا:

﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾.

فكل ما كان خبراً أصبح مشاهدة.

وكل ما كان إنذاراً أصبح واقعاً.

وكل ما كان يمكن إصلاحه أصبح ماضياً.

وهنا تظهر قيمة اللحظة التي نحن فيها الآن.

لسنا عند ﴿أَتَأْتِ الْيَقِينَ﴾ بعد.

ما زالت الصلاة ممكنة.

وَإِطْعَامُ الْمَسْكِينِ مَكَّةً.

وَالخُرُوجُ مِنْ مَجَالِسِ الْخَوْضِ مَكَّةً.

وَإِحْيَاءُ الْيَقِينِ بِالْآخِرَةِ مَكَّةً.

لا يزال الإنسان في المسافة التي يستطيع فيها أن يغيّر الجواب قبل أن يُسأل السؤال.

وهذه هي رحمة الإنذار.

أن تعرف المصير قبل أن يصبح مصيرك.

الفصل السابع

الْحُمُرُ الْمُسْتَنْفَرَةُ وَمَأْسَاةُ الْهَرَبِ مِنَ التَّذَكُّرَةِ

من الإعراض عن الوحي إلى رهبة الآخرة، ومن إرادة الإنسان إلى مشيئة الله

الآيات 49-56

﴿فَأَلْهَمَ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ كَانَهُمْ حَمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ﴿فَنُ شَاءَ ذِكْرَهُ﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿

الآية التاسعة والأربعون: ﴿فَأَلْهَمَ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾

السؤال الذي يكشف غرابة الإعراض

بعد كل ما سبق، يأتي السؤال:

﴿فَأَلْهَمَ﴾.

ما الذي أصابهم؟

ما الذي يجعل إنساناً يسمع هذا الإنذار كله، ويرى هذا البيان، ثم يعرض؟

والتعبير لا يقول فقط إنهم لم يقبلوا التذكرة، بل إنهم معرضون عنها؛ أي إن هناك حركة إرادية في الاتجاه الآخر.

فالإنسان قد لا يعرف الحقيقة.

وقد يعرفها ولا يفهمها.

لكن الأخطر أن تقترب منه الحقيقة فيختار أن يدير لها ظهره.

والتذكرة في جوهرها ليست شيئاً غريباً يُفرض على الإنسان من الخارج، بل شيء يوقظ ما ينبغي أن يكون حاضراً في فطرته وعقله وضميره. ولهذا سماها القرآن «تذكرة»؛ كأن الحق لا يأتي ليصنع إنساناً آخر بقدر ما يأتي ليستنقذ الإنسان من طبقات النسيان التي تراكت عليه. فالمرء ينسى.

ينسى أنه مخلوق.

ينسى أن النعمة ليست ذاتية.

ينسى أن الموت آت.

ينسى أن الناس الذين يخافهم سيموتون مثله.

ينسى أن المال الذي يقتل عليه لن يعبر معه القبر.

ينسى أن كلمة قالها قد تنتظره عند الله.

ينسى أن قلبه نفسه يحتاج إلى إنقاذ.

ثم يأتي القرآن.

لا ليعطيه عالماً غريباً عنه.

بل ليوقظه إلى العالم الحقيقي الذي كان يغفل عنه.

وهنا يصبح السؤال شديداً:

إذا كانت التذكرة رحمة، فلماذا يهرب منها الإنسان؟

والجواب سيأتي في الآيات التالية.

الآية الخمسون: ﴿كَانَ هُمْ حَرًّا مُسْتَنْفِرًا﴾

حين يتحول الإعراض إلى فزع

هذه من أكثر صور القرآن حركةً وحيوية.

﴿كَانَ هُمْ حَرًّا مُسْتَنْفِرًا﴾.

حُرٌّ وحش مذعورة، قد استنفرها الخوف، فاندفعت هاربة لا تلوي على شيء.

وما أعجب الصورة.

القرآن أمامهم تذكرة.

لكنهم يتعاملون معها كأنها خطر.

الوحي يريد أن ينقذهم.

وهم يفرون منه كما يفر المذعور مما يطلب حياته.

وهذه واحدة من أعمق مفارقات الإنسان: قد يخاف من الشيء الذي ينقذه، لأنه يهدد

شيئاً آخر يحبه أكثر من نجاته.

يخاف من الحقيقة لأنها ستلزمه أن يغير نفسه.

يخاف من التوبة لأنها ستقطع علاقةً ألفها.

يخاف من الاعتراف بالخطأ لأنه سيخرج صورته عن نفسه.

يخاف من الوحي لأنه سيعيد ترتيب سلطاته الداخلية.

وهكذا يصبح العلاج في شعوره خطراً.

كم من إنسان يدافع عن مرضه لأنه ألفه.

وكم من قلب يستوحش النور لأن عينيه طال مقامهما في الظلام.

فالظلام إذا طال يصبح مألوفاً، والمألوف قد يكون عند النفس أحب من الصحيح.

الآية الحادية والخمسون: ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَةٍ﴾

حين يفر الإنسان قبل أن يسمع

القسوة فُسرت بالأسد، وبالرماة والصيادين، والمعنى في كلا الوجهين تصوير شدة الفزع والفرار.

﴿فَرَّتْ﴾.

وهذه الكلمة تكشف أن بعض الناس لا ينتظرون حتى يواجهوا المحجة.

يكفي أن يشعروا بأنها ستقترب من منطقة لا يريدون الاقتراب منها فينسحبون.

والفرار من الحقيقة أوسع من ترك مجلس موعظة.

قد يفر الإنسان منها بتغيير الموضوع.

وقد يفر بالسخرية.

وقد يفر بإغراق نفسه في العمل.

وقد يفر بكثرة الترفيه.

وقد يفر بصناعة أسئلة لا يريد أجوبتها.

وقد يفر بالجدل الذي يحول المسألة من نداء للقلب إلى لعبة ذهنية لا تنتهي.

إن للنفس طرقاً كثيرة في الهرب.

وكلها كان الإنسان أذكى، ربما صنع لنفسه ممرات أكثر تعقيداً للفرار.

لكن المشكلة أن الحقيقة التي تهرب منها لا تختفي لأنك غادرت مكانها.

الموت لا يلغيه عدم التفكير فيه.

والحساب لا ينتهي لأن الإنسان توقف عن سماع الحديث عنه.

والله لا يصبح غائباً لأن القلب انشغل عنه.

إن الهرب يغير موضع الهارب.

ولا يغير الحقيقة.

الآية الثانية والخمسون: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً﴾

حين يصبح طلب الدليل حيلة لعدم الانقياد

هنا تكشف السورة نوعاً آخر من الإعراض.

يريد كل واحد منهم أن تأتيه صحف منشورة خاصة به.

كأن الوحي الموجود لا يكفي.

وكان المشكلة نقص في البرهان.

وهذه من الحيل القديمة والمتجددة للنفس: أن تطلب دليلاً جديداً كي تؤجل الاستجابة للدليل الذي بين يديها.

لو رأيت كذا لآمنت.

لو حدثت لي علامة خاصة لاستقمت.

لو جاءني ما جاء فلاناً لتغيرت.

لو وجدت برهاناً لا يترك لي أي احتمال آخر...

وهكذا يظل الإنسان يرفع سقف الشروط.

ليس دائماً لأنه يريد اليقين.

أحياناً لأنه يريد تأجيل الالتزام.

وهناك فرق كبير بين من يطلب الدليل ليهتدي، ومن يطلب دليلاً لا نهاية له حتى لا يضطر إلى الهداية.

فالخلق إذا صار واضحاً بدرجة تقوم بها الحجة، يصبح طلب المزيد أحياناً تعبيراً عن مشكلة في الإرادة لا في المعرفة.

إن بعض الناس يريدون من الله أن يعطيهم خطاباً خاصاً، وتجربة خاصة، وآية خاصة، وكان عبوديتهم لا تبدأ إلا إذا رُتبت لهم السماء وفق شروطهم.

لكن العبودية تبدأ من موضع آخر.

من استعداد القلب أن يقول:

سمعنا وأطعنا.

الآية الثالثة والخمسون: ﴿كَأَنَّ بِلَّ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾

الجذر الذي تختبئ خلفه الاعتراضات كلها

هنا يأتي التشخيص.

ليس السبب الحقيقي أنهم لم يجدوا صحيفة منشورة بأسمائهم.

ولا أن البيان كان ناقصاً.

ولا أن الحجّة لم تبلغهم.

﴿بِلَّ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾.

هذا هو الجذر.

وهنا تضرب السورة إلى عمق النفس.

فالإِنسان قد يقدم عشرات الأسباب الفكرية لموقفه، بينما يكون السبب الحقيقي أعمق:

الآخرة ليست حاضرةً في وجدانه.

ولو كانت حاضرةً بحق، لتغير وزن الأشياء كلها.

إن الخوف من الآخرة ليس هلعاً مرضياً، بل وعياً بالمصير يضبط السلوك.

أن تعرف أن هناك يوماً ستتكلم فيه الأعمال.

ويُسأل فيه الإنسان.

وترد فيه المظالم.

وتتكشف فيه الأسرار.

وتسقط فيه الأعذار.

فإذا غاب هذا كله عن القلب، توسعت مساحة الجراءة.

يمكن للإنسان أن يظلم ثم ينام.

ويكذب ثم يبرر.

ويخوض ثم يضحك.

ويترك الصلاة ثم يؤجل.

ويمر بالمحتاج ثم لا يشعر.

لأن الآخرة أصبحت فكرة بعيدة لا قوة لها في القرار.

ولهذا فإن إصلاح الإيمان بالآخرة ليس إضافة موضوع وعظمي إلى الحياة.

إنه إعادة بناء الضمير كله.

كلما حضرت الآخرة، صغرت أمامك أشياء كانت كبيرة.

وكلما غابت، كبرت الدنيا حتى تملأ الأفق.

الآية الرابعة والخمسون: ﴿كَأَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ﴾

القرآن لا يطارد الإنسان إلا لينقذه

مرة أخرى: ﴿كَأَلَّا﴾.

قطع للأوهام.

إنه تذكرة.

وهذه الكلمة بعد كل ما مر في السورة لها طعم آخر.

سقر تذكرة.

الناقور تذكرة.

قصة المعاند تذكرة.

القمر والليل والصبح تذكرة.

سؤال أصحاب اليمين تذكرة.

الحجر المستنفرة تذكرة.

فالقرآن لا يراكم المشاهد ليهر القارئ فحسب.

إنه يريد شيئاً واحداً:

أن يتذكر.

والتذكر أعمق من المعرفة.

قد تعرف الشيء ولا تعيش على أساسه.

وتذكره يعني أن يصبح حاضراً عند القرار.

تعرف أن الله يراك.

لكن هل نتذكر ذلك لحظة الإغراء؟

تعرف أن الموت آت.

لكن هل نتذكره حين تؤجل التوبة؟

تعرف أن المظلوم سيأخذ حقه.

لكن هل نتذكر ذلك حين نستطيع أن نظلم؟

هنا تتحول المعرفة من مخزون إلى حياة.

وهنا يبدأ أثر القرآن الحقيقي.

الآية الخامسة والخمسون: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكِّرْهُ﴾

حين يُفتح الباب أمام الإرادة

القرآن موجود.

والتذكرة قائمة.

ثم يقال:

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكِّرْهُ﴾.

هناك مسؤولية إنسانية حقيقية.

أنت لست حجراً.

ولا كائناً بلا اختيار.

هناك باب.

وهناك نداء.

وهناك قدرة على الاستجابة في حدود ما أعطاك الله.

وهذا يعيدنا إلى قوله قبل قليل:

﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾.

فالقرآن يعامل الإنسان بوصفه مسؤولاً عن جوابه.

يمكنه أن يتقدم.

ويمكنه أن يتأخر.

يمكنه أن يذكر.

ويمكنه أن يعرض.

وهذه المسؤولية هي التي تمنح للحياة وزنها الأخلاقي.

لو لم يكن الإنسان مسؤولاً، لما كان للأمر والنهي والجزاء معنى.

لكن السورة لا تترك الإنسان هنا حتى لا يقع في الوهم المقابل.

سيأتي التصحيح في الآية التالية.

الآية السادسة والخمسون: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ^ج هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾

حين تعود الإرادة كلها إلى باب الله

هذه الخاتمة من أجمل وأعمق خواتيم السور.

قبلها مباشرة:

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكْرُهُ﴾.

ثم:

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

في آيتين متجاورتين يجمع القرآن بين مسؤولية الإنسان وافتقاره الكامل إلى الله.

لك مشيئة.

لكن مشيئتك ليست مستقلة عن مشيئة خالقك.

تختار.

لكن قدرتك على الاختيار نفسها من عطائه.

تطلب الهداية.

لكن الذي يفتح القلب لها هو الله.

وهنا يسقط غروران في وقت واحد.

غرور المتواكل الذي يقول: لا مسؤولية علي، ما دام كل شيء بمشيئة الله.
وغرور المستقل الذي يقول: أنا أهدي نفسي وأصنع مصيري بقوتي وحدي.
القرآن يقول لهذا: أنت مسؤول.

ويقول لذلك: أنت فقير.

وهذه هي العبودية في أنقى صورها.

أن تمشي بكل ما تملك من إرادة.

وأنت تعلم أنك لا تصل إلا بالله.

أن تجاهد.

وتدعو.

وتختار.

وتقاوم هواك.

ثم لا تنسب نور الطريق إلى نفسك.

لأنك تعرف كم من قلب رأى ما رأيت ولم يهتد.

وكم من عقل عرف ما عرفت ثم استكبر.

فإذا وجدت في قلبك حباً للقرآن، أو خشيةً من الله، أو رغبةً في التوبة، فلا تتعامل معها

كإنجاز شخصي خالص.

اخفض رأسك.

هذه نعمة.

ثم تأتي الجملة الأخيرة:

﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾.

يا لعظمة النهاية.

السورة التي امتلأت بالنافور، واليوم العسير، وسقر، والنار، والعذاب، والمجرمين، تنتهي بكلمة:

المغفرة.

ليس هذا تناقضاً.

بل هو تمام المعنى.

لأن الذي يندرك من النار هو نفسه الذي يريد أن يفتح لك باب النجاة منها.

وهو أهل أن يُتقى؛ لعظمته وجلاله وحقه على عباده.

وهو أهل المغفرة؛ يغفر لمن تاب إليه ورجع.

فانخوف في الإسلام لا ينتهي إلى اليأس.

بل يقود إلى الباب.

والتوبة لا تبدأ من إنكار الذنب.

بل من معرفة أن وراء الذنب رباً يغفر.

والمؤمن لا يسير إلى الله بين رعب مجرد وأمن مجرد.

بل يسير بين معرفتين:

أن الله أهل التقوى.

وأنه أهل المغفرة.

فلو كان في القلب خوف بلا مغفرة انكسر إلى اليأس.

ولو كان فيه حديث عن المغفرة بلا تقوى انفتح باب الغرور.

أما القرآن فيجمعهما في عبارة واحدة.

تخف منه.

وترجوه.

تعرف جلاله.

وتعرف رحمته.

تهرب من معصيته.

ثم تهرب إليه منها.

وهكذا تنتهي سورة المدثر عند الباب الذي بدأ منه كل شيء:

الله.

في أولها:

﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾.

وفي آخرها:

﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾.

فبين التكبير والمغفرة تمضي رحلة السورة كلها.

خاتمة الكتاب

من الدثار إلى المغفرة

بدأت سورة المدثر بإنسان متلفف بثوبه:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾.

وانتهت بإنسان لا يستطيع حتى أن يتذكر إلا أن يشاء الله:

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

وبين البداية والنهاية رحلة كاملة في صناعة الوعي الإيماني.

في البداية قيل للنبي صلى الله عليه وسلم:

قم.

كأن أول ما يحتاجه الإنسان ليست معلومة جديدة.

بل أن ينهض.

فكم من حق عرفناه ونحن لا نزال تحت الدثار.

وكم من خير أحبيناه ولم نقم إليه.

وكم من مسؤولية أقررنا بها ثم أجلناها لأن دفاء الراحة كان أقرب.

لهذا كانت أول كلمة في مشروع الرسالة:

﴿قُمْ﴾.

ثم لم يترك القرآن القيام بلا ميزان.

قال:

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.

فمن لا يعرف من الأكبر لن يستطيع أن يمشي طويلاً في طريق الحق.

سوف يكبر الناس في عينه.

ويكبر المال.

وتكبر الخسارة.

ويكبر الخوف.

ويكبر التصفيق.

حتى يصغر الله في منطقته العملي، وإن ظل لسانه يقول: الله أكبر.

ثم جاءت الطهارة.

والهجر.

والتجرد من المنّة.

والصبر.

كأن السورة تقول: قبل أن تحمل الرسالة إلى الناس، اجعل للرسالة أثراً عليك.

فالدعوة التي لا تنظف حاملها تتحول سريعاً إلى كلام.

ثم جاء الناقور.

فانكشفت النهاية.

وكان القيام في أول السورة لا يمكن أن يفهم إلا إذا سمع القلب في داخله صوت اليوم الأخير.

قم الآن.

لأن يوماً سيأتي لا تستطيع فيه أن تقوم للعمل.

وحين عرضت السورة نموذج الإنسان المعاند، لم تصفه بالجهل البسيط.

بل قالت:

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾.

وهنا كانت الصدمة الكبرى.

العقل نفسه قد يضل.

ليس لأن التفكير شر.

بل لأن التفكير إذا خدم الهوى صار أشد أدوات الهوى خطورة.

فالذي يملك لساناً ضعيفاً قد يكذب كذبةً بسيطة.

أما صاحب البيان فيستطيع أن يبيّن للكذب قصراً.

والذي لا يعرف كثيراً قد يخطئ خطأً مباشراً.

أما الذي إذا خان أمانة عقله فيستطيع أن يزيّن انحرافه حتى يبدو له فلسفة.

ولهذا كان قلب السورة درساً في أخلاق المعرفة.

لا يكفي أن تفكر.

اسأل: لمن يعمل عقلك؟

للحقيقة؟

أم لكبريائك؟

ثم جاءت سقر.

فلم يترك القرآن الإنسان يعيش في عالم الأفكار وحده.

هناك نتائج.

هناك مصير.

هناك يوم يتحول فيه الرأي إلى حساب.

والقرار إلى أثر.

والكلمة إلى شاهد.

ثم خرجت السورة إلى القمر والليل والصبح.

وكان الكون نفسه جاء ليرد للروح توازنها بعد مشاهد النار.

القمر.

الليل حين يدبر.

الصبح حين يسفر.

ثم يقال للإنسان:

﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾.

كان العمر كله حركة.

ولا يستطيع أحد أن يقيم خارج الاتجاه.

حتى من يقول: سأبقى كما أنا، قد اختار في الحقيقة أن يتأخر.

ثم بلغت السورة واحدة من أعظم آيات المسؤولية:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾.

وهنا سقطت الأعذار الجماعية.

لن يحمل عنك أحد حياتك.

لن ينفعك أن تقول: المجتمع.

ولا الجماعة.

ولا الناس.

ولا الزمن.

ولا الجميع كان يفعل.

كل نفس.

بما كسبت.

رهينة.

ثم جاء السؤال:

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾.

فكشفت الإجابة خريطة الانهيار:

لا صلاة.

لا رحمة بالمسكين.

خوض مع الخائضين.

تكذيب بيوم الدين.

وكان السورة تقول إن الإنسان ينهار حين تنقطع صلته بالله، ثم تنقطع رحمته بالخلق، ثم يسلم عقله للجماعة، ثم يغيب عنه المصير.

وهذه ليست أربع معاصٍ منعزلة.

إنها أربع جهات في خريطة الروح.

فإذا فسدت الجهات ضاع الطريق.

وفي النهاية تأتي صورة الحمر المستنفرة.

وتكشف لنا شيئاً أشد إيلاماً من الجهل:

الفرار.

قد تقف الحقيقة عند الباب.

ولا ينقص الإنسان دليل.

لكنه يهرب.

يهرب لأن الحقيقة ستطالبه بئس.

أن يترك.

أن يتوب.

أن ينكسر.

أن يعترف.

أن يبدأ من جديد.

وما أشق «من جديد» على قلب اعتاد أن يظن نفسه دائماً على صواب.

لكن السورة لا تنتهي بالهاربين.

ولا بسقر.

ولا بالمجرمين.

بل بالله.

﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾.

وكأن الرحلة كلها تعود بك إلى الأصل.

قم لله.

كبر الله.

اصبر لله.

خف من لقاء الله.

واطلب الهداية من الله.

ثم إذا أثقلت ذنوب الطريق، فلا تهرب منه.

اهرب إليه.

فهو أهل المغفرة.

إن سورة المدثر ليست سورة تخويف كما قد تبدو لمن قرأ سطحها وحده.

إنها سورة إنقاذ.

تخيفك كي لا تحترق.

وتوقظك كي لا يفوتك العمر.

وتكشف لك أمراض العقل كي لا تظن ذكاءك عصمة.

وتحدثك عن العمل كي لا تنام في أحضان الأمان.

وتحدثك عن مشيئة الله كي لا تتكبر بإرادتك.

ثم تحدثك عن المغفرة كي لا تيأس من نفسك.

لقد بدأت الرحلة بدثار.

وانتهت بمغفرة.

وبينهما إنسان يُصنع.

يخرج من دفء نفسه.

يرى ربه أكبر.

يطهر طريقه.

يهجر رجسه.

يصبر.

يسمع الناقد قبل أن يأتي.

ويرى النعمة امتحاناً لا امتيازاً.

ويجعل عقله طالباً للحق لا محامياً عن الهوى.

ويذكر الآخرة.

ويصلي.

ويرحم المسكين.

ولا يخوض مع كل خائن.

ويتقدم كل يوم خطوة.

وإذا سقط، عاد.

وإذا ضعف، استعان.

وإذا نسي، تذكر.

وإذا رأى في قلبه خيراً، عرف أن الفضل لله.

وإذا رأى في نفسه ذنباً، عرف أن باب المغفرة لم يغلق ما دام في العمر بقية.

وهكذا يبقى أول نداء في السورة صالحاً لأن يسمعه الإنسان كل صباح:

﴿قُمْ﴾.

قم من يأسك.

قم من غفلتك.

قم من استسلامك للعادة.

قم من خوف الناس.

قم من فتنة المال.

قم من مجلس الخوض.

قم من تأجيل التوبة.

قم من كل دثار جعلته بينك وبين ما يريد الله منك.

ثم إذا قت، فلا تنظر طويلاً إلى نفسك.

انظر إلى ربك.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.

وإذا طال الطريق:

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

وإذا خفت من تقصيرك:

﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْغَفْرِ﴾.

هكذا تنتهي سورة الم نشر.

لكن نداءها لا ينتهي.

فالإنسان، ما دام حيًّا، يحتاج في كل مرحلة إلى أن يخرج من دثار جديد.